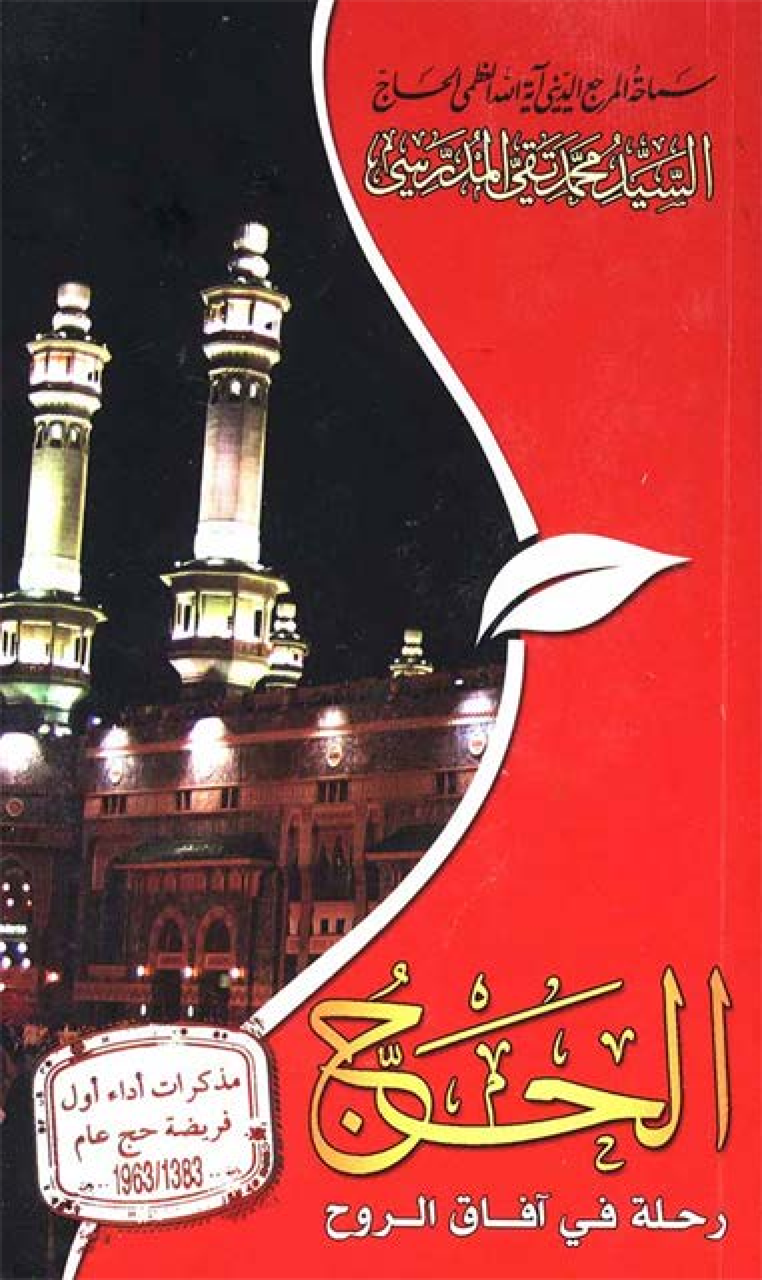
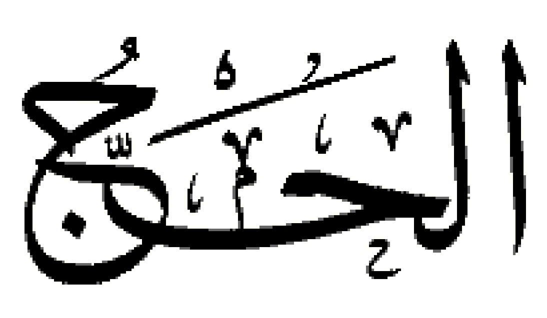

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي
الحج
رحلة في آفاق الروح
مذكرات أداء أول
فريضة حج عام
1963/1383 ...





رحلة في آفاق الروح

مذكرات أداء أول فريضة حج عام ١٣٨٣ هـ



سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج

السيد محمد تقي المدرسي



رحلة في آفاق الروح

مذكرات أداء أول فريضة حج عام ١٣٨٣هـ

مركز العصر للثقافة والنشر

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م



هوية الكتاب:

* الكتاب: الحجُّ.. رحلة في آفاق الروح

مذكرات أداء أول فريضة حج عام ١٣٨٣هـ.

* المؤلف: آية الله العظمى الحاج السيّد محمّد تقي المدّرسي.

* الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م (١٢٥ - صفحة).

* الناشر: مركز العصر للثقافة والنشر.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)

صِرَاطَ الَّذِينَ أنعمت عَلَيهِمْ

غَيرِ الْمَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (٧)﴾


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المقدمة

لا أتذكر ما الذي وفقني إلى تسجيل ذكريات السفر عندما وفقني الرب سبحانه لزيارة بيته الحرام قبل أقل من نصف قرن مضى، ولكنها تبدو اليوم حسب رؤية بعض الإخوة مفيدة للنشر، لأنها -حسب رأيهم أيضًا- تجمع بين سرد قصة الحج في تلك الأيام، حيث كانت الظروف مختلفة عنها في هذه الأيام، وبين بيان أحكام الحج وبعض من فسلفته.

وإني أشكر الله على توفيقه لي بزيارة بيته في فترات متفاوتة من عمري، وأتصور أن الكثير من النعم التي أسبغها الرب عليّ كانت عن طريق الحج، حيث التزود بالتقوى والتعرّف على أوضاع المسلمين في مختلف بقاع الأرض، والاستفادة من آراء مختلف الناس في شؤون المسلمين.

إن الحج ليس رحلة في الأرض وعلى الامتداد الجغرافي فقط، وإنما هو أيضًا عروج في أفق المعنى، حيث ينتقل الحاج انتقالاً نوعيًا من مستوى إلى مستوى آخر رفيع.

وهكذا أوصي المؤمنين بأن يبادروا إلى الحج في شبابهم حتى يستفيدوا من بركاته في بقية حياتهم، لأن آثار الحج المعنوية تبقى طيلة الحياة وبإذن الله تعالى، وأسأل العلي القدير أن يوفقنا أبدًا لزيارة بيته لكي نحظى بفضله وجوده ورضاه.

محمد تقي المدرسي

٣/ ١٢/ ١٤٢٩هـ



كيف عزمت؟

كنت -ولا أزال حتى هذا الوقت- أمتلئ حبًّا عميقًا للحج، يبعث في نفسي قوة تحدو بي إلى الديار المقدّسة، وزيارة بيت الله العتيق؛ حينما أرتّل الآيات القرآنية المباركة التي تفرض الحج، هذا الواجب العظيم في قوة وإصرار، وعاطفة مشبوبة.

فَطَوْرًا: تعرض البيت العتيق حيث كان يُعبَد الله عنده حينما كان بناية ناشئة يرفعها إبراهيم الخليل وإسماعيل نجله العظيم عليهما السلام في أشباح العصور السحيقة التي غرقت في لجج ظلمات التاريخ. فيقول عزّ من قائل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

فقد بُنيت القاعدة الأولى لهذا البيت على التقوى، ولقد بناه قائدٌ حمل راية التوحيد في آفاق تتلبّد عليها غيوم الجهل والظلم فتحجب نور الحق من أن يشرق على العقول، فيهديها إلى الطريق اللاحب، والصراط المستقيم.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٧ / ١٢٨.

فما كان يؤمن بالله فيها إلّا شخص إبراهيم عليه السلام في صمود جبّار، ولذا كان أُمةً في رجل، ثم كافح الكفر والشرك بيد، وبنى البيت للطائفين والعاكفين والركّع السجود بيده الأخرى.

فتوسّعت دعوته؛ وانحدرت منه سلالة مؤمنة، وشيدت الكعبة قاعدة له ولذرّيته في الإيمان: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ تلبية دعوته، وتكريم النبي في ذرّيته وسلالته ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[1].

فإذا كان أول بيتٍ وُضِعَ للتوحيد، وعبادة الله هو الكعبة في المسجد الحرام، وأول بيت للحق والهدى جدّده النبي إبراهيم عليه السلام، فجدير بالمؤمن أن يطوف به ليرسخ في قلبه الإيمان، وليصمد أمام التيارات العنيفة إصرارًا على المبدأ إذا طرأت الطوارئ، أو هبّت الزوابع.

وإذا كان المؤسس لهذا الكيان العَقَدِيّ العظيم هو النبي إبراهيم عليه السلام، فعلى المؤمن أن يتّبع ملّة إبراهيم حنيفًا.

وإذا كان المشعل الذي حمله النبي إبراهيم عليه السلام قد تلاقفه الأنبياء عليهم السلام من ذرّيته، فورثه النبي محمّد خاتم النبيين وسيّدهم صلى الله عليه وآله، فمن الواجب على المؤمن ألّا يكفر بعد إذ جاءه الهدى والحق المبين.

الآن هيّا بنا نستمع إلى القرآن الكريم في منطقه

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٧.

العذب، ليقول في هدوء وديع وقوة عميقة: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٩٥ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٩٧ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

فمكة المكرمة احتضنت أول بيت يفيض بركةً ويشعّ هدًى للعالمين، وقد نصب فيه مقام النبي ابراهيم عليه السلام، منار التوحيد، الذي انبعث منه الهدى إلى الآفاق، ولا يزال كونه مصدر الإشاع العَقَدَيّ.

وقد دعا الله عز وجل الناس إلى اتّباع ملّة إبراهيم، لأنه حنيفًا وما كان يومًا من المشركين.

ونبينا الأكرم محمد ﷺ من ذريته، يواصل دعوته، وهو أولى الناس به، وله آيات من الله بيّنات. إذاً: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

فترى هذه الآيات المباركات تحاول تحقيق أهم القضايا لدى الوحي، وهي: التوحيد الحق في اتباع ملّة إبراهيم عليه السلام حنيفًا بغير شرك ولا كفر، والنبوّة في تصديق الحق بعد إذ جاءهم، وثالثها الحج الفريضة العظيمة.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٥/ ٩٨.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٩٥/ ٩٨.

وطوراً آخر؛ يأتي القرآن ليعرض للمؤمنين أهم الفوائد المترتبة على هذه الفريضة المباركة، فيقول: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[1].

حينما كنت أُرتّل هذه الآيات العذبة، الثائرة في قوة نفوذها واقتدارها على هداية النفوس، وتنوير القلوب، وفرض حكمها الصادق الحق عليها؛ ذلك أنها تستتبع فكر القارئ بقوة مدهشة، ثم توجهه معها لتدور حيثما دارت باستمرار.

حينما كنت أُرتّلها وأتدبّرها إذا بي أحس في نفسي بشيء يجذبني نحو الواجب المفروض، ويتزايد هذا الشعور المتدفق كلما أرتلها ترتيلاً.

فهذا كان مبعث شعوري الذي دفعني إلى الحج، والذي كان يقوى ويتزايد كلما مررت بآية كريمة تحث على الحج.. أو أثرٍ مرويٍّ عن النبي ﷺ، وآله عليهم السلام، تؤكد وجوبه، وتفسّر مناسكه.

(١) سورة الحج، آية: ٢٧/ ٣٠.

آثار مروية

فكنت أرى في بعضها: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ حَجَّةَ الْإِسْلَامِ، لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ ذَلِكَ حَاجَةٌ تُجْحِفُ بِهِ، أَوْ مَرَضٌ لَا يُطِيقُ فِيهِ الحَجَّ، أَوْ سُلْطَانٌ يَمْنَعُهُ، فَلْيَمُتْ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا»[1].

ذلك أنه ما اتّبع ملّة إبراهيم عليه السلام.

كما كنت أتلمّس استعراضًا لفلسفة الحج كقول أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام حيث يقول: «.. فَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلْأَنَامِ يَرِدُونَهُ وُرُودَ الْأَنْعَامِ، وَيَأْلَهُونَ إِلَيْهِ وُلُوهَ الحَمَامِ. جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلَامَةً لِتَوَاضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ، وَإِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ. وَاخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعًا أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ، وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ، وَتَشَبَّهُوا بِمَلَائِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ. يُحْرِزُونَ الْأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبَادَتِهِ، وَيَتَبَادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ. جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ لِلْإِسْلَامِ عَلَمًا، وَلِلْعَائِذِينَ حَرَمًا. فَرَضَ حَجَّهُ، وَأَوْجَبَ حَقَّهُ، وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفَادَتَهُ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[2]»[3].

(١) الفروع من الكافي: ج ٤، ص٢٦٨.
(٢) سورة آل عمران، آية: ٩٧.
(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١.

أدعية خاشعة

وطورًا؛ كانت الأدعية المأثورة لا سيّما تلكم المندوبة في شهر رمضان، شهر الصيام، التي تحمل في ثنايا نغماتها الخاشعة قوّة حفّازة إلى الحج، وأداء الواجب المفروض لله على الناس بصيغة طلب التوفيق للحج من الله الموفّق سبحانه، كانت تخلّف في نفسي تفاعلاته العميقة.

ومن تلك الأدعية ما هو مروي عن الإمام الصادق والإمام الكاظم عليهما السلام، أن يُقرأ بعد كل فريضة طيلة شهر رمضان المبارك: «**اللّـهُمَّ ارزُقْني حَجَّ بَيْتِكَ الحَرامِ في عامي هـذا وَفي كُلِّ عـام ما اَبْقَيْتَني في يُسْر مِنْكَ وَعافِيَة، وَسَـعَةِ رِزْق، وَلا تُخْلِنـي مِـنْ تِلْـكَ المَواقِـفِ الْكَريمَةِ، وَالمَشـاهِدِ الشَّريفَةِ، وَزِيارَةِ قَبْرِ نَبِيِّكَ صَلَواتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ...**»[1].

وهذه كلّها هي التي جعلتني أشتاق إلى الحج ولم أجد إليه سبيلًا، حتى انقضت الأيام والليالي وأنا أعيش حبًّا عميقًا، وغرامًا مؤلمًا، فلم يُقدَّر لِيَ الحج سنة بعد أخرى.

وكانت سنة ١٣٨٣ الهجرية في ربيعها حينما شمّرت عن ساعدي ورفعت يديّ داعيًا الربّ القادر أن يوفقني لأمنيتي المنشودة التي طالما مُنيت فيها بالفشل، وحينما انتهى شهر الصيام قمت لكي أُهيّئ التدابير اللازمة للحج، وهنا ابتدأت مشكلة القانون.

(١) مفاتيح الجنان، أعمال شهر رمضان العامة.

قصّتي مع القانون

ويلزم أن نعلم مجملًا؛ أنّ القوانين السائدة في بلادنا اليوم، ولا سيّما تلك التي تكْبِتُ حرية السفر والإقامة، إنما هي من رواسب الكيان الاستعماري المنهار، التي بقيت في البلاد بعدما نزح عنها الاستعمار العسكري تاركًا القسم الوافر من هذه الجراثيم لإفساد البلاد!.

فانظر الآن.. إني حينما أردت السفر إلى الديار المقدّسة ولم يكن لي سابقة سوء في الأمن ولا كنت ممن يُخشى منه على الدول.. ولست من المذنبين ولا المفسدين.. ولكن مع كل ذلك؛ ذهبت إلى الجهة المعنيّة في مدينة كربلاء طالباً منها الموافقة على السفر فأخذت تسوّف في الإجابة.. وبعد اللتيا والتي حزت على جواز السفر بشق الأنفس، وصرفت أوقات كثيرة من أجل ذلك، ثم أخذت الدوائر الأخرى المعنية بشؤون السفر والحج تستهزئ بأوقاتي الثمينة وتتواكل في أمري، فكل موظف يرسلني إلى موظف آخر، وهو بدوره يرسلني إلى غيره من الموظفين، ثم يعطلونني من يومٍ إلى غده، ومنه إلى الغد الذي بعده.

حتى كان ذلك اليوم الـذي كِدْتُ أتميّـز فيه غيضًا وحنقًا، حيث كنت على موعـد مع أحد أصدقائي ليُكْرِي لنـا سـيارة لأذهب معه في الوقت المعـيّن إلى عمّان عاصمة الأردن. ولم أكـن جاعلًا الموعد هذا إلاّ بعد سـؤالي خبيراً عن أمري الحكومي فأجابني، أنه بسـيط يكفيك منه اليوم الواحد.

ولكن الخيبة -كلّ الخيبة- استقبلتني عندما قال لي أحد الموظّفين اذهب وعُدْ غداً.

قلت له: لماذا؟.

قال: لأنّ الأعمال كثيرة.

فقلت: لكن مـا أصنع أنا؟. فلقد رتَّبتُ العمل على انتهـاء عملي هـذا اليوم، فـإني على موعد مسـتعجل.. ولم أجـد إلى إخبـار صديقي سـبيلًا.. فيجـب أن ينتهي عملي اليوم وإلاّ أصبحت التذكرة والصديق هباء.

فقال الموظف: كما أقول.. إذهب وعُدْ غداً.

فهناك أصابني موقف حرج مضطرب، فرأيت إما أن أتمم عملي بالمنازعة الهوجاء، وليس ذلك بصحيح، وإما أن أتملّق إليه التماسًـا، وحاشـا لمبدئي أن يجوّز لي الخشـوع لموظّـف متعجرف، وإما القـول المنطقي وها هو لا يفيد.. فظللـت في المكان عبثـاً، وأمّلت تمام الأمـر بغير جدوى، وغادرت الدائرة حيث اقترب انتهاء الدوام، ثم بعد ذلك أتيته في اليوم الثاني، وكنت على ميعاد أيضًا، وأنهيت ذلك

العمل، فابتُليتُ بموظف متعجرف آخر، أما هذا الموظف فقد أمرني بشيء كالمستحيل بعد أن وعدني أن يتم العمل بتمامه خلال الدوام الرسمي وفي اليوم نفسه.

فقال: اذهب إلى الدائرة الفلانية ثم ائتني بنتائجها في هذا اليوم.

وكانت الدائرة المعنيّة مشغولة بكثرة المراجعين، فلم يكن استخلاص أوراقي منها يتم بسهولة، بيد أن الأصدقاء عاونوني في ذلك، حتى حصلنا على الأوراق وأتينا بها إليه. وابتليت بمثله فقال جئني بإضبارتك[1] -مع العلم أنه لم يكن لي إضبارة قط- فلم نجد منها خبراً.

فقال: اجلب لي إضبارة أبيك.

فطلبناها ثم لم نعثر عليها، ولا عثرنا على خبر منها أو أثر، بَيْدَ أن طلبنا كان عبثًا لأن الإضبارة كانت لديه هو.. وقد طلبها منّا إيغالاً في الخبث والتعجرف.

ثم وبعدما عرفنا أنها لديه لم يكن له إلاّ أن يقول: اذهب وعُد غداة الغد لأنظر في أمرك.

انظر -أيها القارئ المحترم- إلى هذا، ثم قل لي هل يستحق الحاج مثل هذا؟. وأي جرم أجرمه.. أو أي ذنب اقترفه ليبتلي بصرف الطاقات والأوقات في سبيل لا شيء؟.

(١) إضبارة تعني: الملف باللهجة العراقية.

وفي بكرة ذلك اليوم ذهبت إليه فلم أستطع استلام جوازي إلاّ بشق الأنفس! هنالك علمتُ أن في الأمر شيئًا.. وأن هذه الأعمال لغاية مقصودة، وهدف منشود قد صرح به غلادستون[1]، ولنفس المنهج مَنَعَ خُدّام الاستعمار الدخلاء -ويمنعون حتى اليوم- عن الحج بشتى الطرق والوسائل.

(١) هو رئيس وزراء بريطانيا عام ١٨٦٨، وحتى عام ١٨٧٤.

قصتي في الطريق

رحلنا عن بغداد مُيمِّمين شطر مدينة عمّان الأردنية بسيارة كانت تطوي الأرض، وتنهبها نهبًا، فمررنا بالقرى والأرياف الصغيرة التي كانت تعيش في حياة وديعة، بعيدة عن ضوضاء المدن كثيفة السكان، وحيث السواد الأعظم، والجمع الغفير يطلب كل رزقه، ويخترق مصالح الآخرين في سبيل مصلحته ليبني شخصيته فوق قمّة الهدف المنشود.

ولكن علمت أنّ الإنسان في المدينة الآهلة أقرب إلى إبراز طاقاته من أن يصبح أليف القرى والأرياف -وإن كان أروح نفسًا- وذلك بسبب الإمكانات الهائلة التي توفّرها الحكومات في المدن وتحرم منها القرى والأرياف؛ ذلك أنّ اهتمامات الريفي تبقى في حدود إمكاناته المحدودة فلا يجد مجالًا للتطوّر وإبراز الطاقات.

وأما الحضري الذي استوطن البلد، فيستطيع أن يبرز طاقات أكثر، ويبني شخصيته في نطاق أوسع، بسبب ما يتوفر له من فرص وإمكانات أكثر مما يجده الريفي.

وهكذا انعطفنا إلى وادي الشامات عن (رطبة)

الحدود العراقية قاصدين مدينة عمّان الأردنية في سرعة خاطفة والشارع معبّد كلّه.

ووصلنا الحدود الأردنية قبيل الفجر بعدما قضينا ليلتنا تلك بالسير الحثيث ولم نذق فيها راحة النوم غير قليل، فكان المرتقب أن نستريح من عناء السفر ووعثاء الطريق المتعب، لكن خاب الأمل عندما عطّلتنا دائرة المكوس والجمارك بأمور الحدود، حتى طلعت علينا الشمس.

الحدود المزيفة

فعدنا إلى السير، مفكّرين في أمر الحدود التي تفصل بين البلاد: هل أنزل الله بها سلطانًا؟ أم هل أمر بها الإسلام الذي نتّبعه ويتّبعه الملايين؟ ثم هل لها هدف عقلاني صحيح..؟.

وهكذا كانت تتسلسل في خاطرنا الأفكار حتى علمتُ أن الذي حدّ الحدود الموجودة في البلاد هو: عبدالله فيلبي وموريس، حيث وفدا على البلاد الإسلامية فعاشا فيها ثلاثين سنة جاسا خلالها الديار، فخطّطا الحدود الموجودة، ثم نَفّذَت تلك الخطط السلطة الاستعمارية المسؤولة عن البلاد بعد تقلّص ظلال الحكم الإسلامي الوارف عن أرجائها، فتشتت الوحدة السائدة في بلاد المسلمين.

فترى رجلين اتّحدا في عقيدتهما وعاداتهما وجميع

شؤونهما، تفرّقهما حدود ابتدعها رجلان دخيلان من الكفار لتحكيم القاعدة الاستعمارية المطّردة، «فرّق تسد».

ثم ذهب الرجلان، وولّى معهما الاستعمار العسكري، ولكن بقيت رواسبه قائمة حتى اليوم تعيث في الأرض الفساد، وتُبقي جرثومة الفساد في الديار.

وكان المرتقب من المتحررين أن ينطلقوا من كل رذيلة واكبت الاستعمار الغاشم الأثيم، ولكن لستُ أدري، كيف ظل مفهوم الحدود شيئاً معقولاً خضع له غير واحد من الحكام والثوّار؟ فلا زال -حتى اليوم- يفرّق الوحدة المحمّدية التي حققها القرآن، لتعود البلاد إلى جاهليتها الأولى.

وبينما كانت حلقات الفكر تدور في خاطري كنّا نضرب في الهضاب والبطاح، فحيناً نعلو جبلاً وحيناً ننحدر في وادٍ عميق.



في مدينة عَمّان

حتى أطللنا على المدينة المنشودة، مدينة عَمّان -عاصمة الأردن- فإذا بها تبعثرت بين الجبال الجميلة كأنها الأزهار القشيبة العطرة، نفح فيها عليل النسيم، فتلاشت بين هضبات خُضر، وجبال بِيض، وغرابيب سُود، فَتَقَبَّلَتْها بصدر رحيب واسع..

فكانت جبالها المعمورة أربعة عشر جبلًا آهلًا، لكل جبل منها لوازمها؛ فجامع -أو جوامع- خاص، وشرطة وبلدية خاصة، ومدارس ومستشفيات مخصوصة.

ولكل جبل منها طبقات في كل جهة.. ففي الجهة الغربية -مثلًا- تشاهد: الطبقة الأولى عبارة عن شارع رئيسي وشوارع أو أزقة فرعية ودور وحوانيت ومدارس، ومراكز الشرطة نجدها على طرف الجبل، أما الطرف الآخر منه فترى سطوح بنايات الطبقات الأُخر..

وكذلك الطبقات في جميع الجهات..

وعندما تكون جالساً في بيتك ترى الشوارع والأزقة والبيوت والناس والدكاكين وأربابها وغير ذلك في كل طبقة من طبقات الجبل..

وكانت هنالك شوارع رئيسية بين الجبال؛ كشارع طلال وشارع الحسين وغيرهما، ومنها تنشعب الطرق إلى كل جبل وحي.. حتى تصل قمته في ملتويات كثيرة.

ولكنّي أسفت كثيرًا.. على تلك الجاهلية الجهلاء التي عادت ويلًا على الناس والبلاد، تلك هي: تبرّج الجاهلية الأولى، فترى النساء -في تلك المدينة- أكثرهن سافرات.. متبرجات، يخرجن في حلل الزينة لتغرين الشباب، وتكثر الفحشاء والمنكرات.

ليت شعري هل بعد هذا إلّا النار؟ وهل لهذا الجيل مصير سوى الجحيم؟ ترك حكم دينه ليُقلّد غيره عن عمى، فاتبع أمر كل حلّاف غربي طفق يفسر هم الحضارة في تزييف وتزوير.. فويل لمن اتّخذ الكفار أولياء من عذاب يوم أليم..

إلى بيت المقدس

بقينا في عَمّان أيامًا معدودات، طفنا خلالها حول بعض المدينة وقسم من جبالها المعمورة، ثم غادرناها إلى بيت المقدس قاصدين الرجوع إليها في ليل صبيحتنا تلك.

خرجنا من عَمّان أوان الصبح مُيمّمين شطر بيت المقدس.. أولاً؛ حيث المسجد الأقصى الذي أُسري إليه بالنبي ﷺ وصلّى فيه بالأنبياء والمرسلين والملائكة المقرّبين عليهم السلام، فقال له جبرائيل عليه السلام: «**هَذَا بَيْتُ المَقْدِسِ بَيْتُ الله الأَقْصَى فِيهِ المَحْشَرُ وَالمَنْشَرُ**»[1].

ثم عرج إلى السماء على البراق، من فوق الصخرة المقدّسة، فرأى البيت المعمور و.. و.. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2].

فما أن وصلنا إلى البناية المتعلّقة بالمسجد حتى رأيناها

---

(١) بحار الأنوار، ج ١٨، ص٣١٧.

(٢) سورة الإسراء، آية: ١.

ساحة وسيعة جدًا مفترشة بالأعشاب والأزهار، فأول ما استقبلنا هو قبر سيّدنا سليمان النبي الذي كان له من الملك ما لم يؤته الله لأحد من قبله، ولا ينبغي لمن بعده أبداً.

ثم عطفنا إلى الجانب الغربي من الطريق نزور الصخرة المقدّسة النازلة من السماء مع الحجر الأسود وصخرة المقام، وصخرة موسى، ومن هناك عرج النبي محمد ﷺ إلى السماء.

فرأينا القبة الذهبية تزهو سابحة في الفضاء على الصخرة المقدّسة، ولما أن تخطّينا خطوات قليلة إذا نحن في البقعة تحوط بنا الجدران الملوّنة القشيية، وفي وسط هذه البقعة الدائرية كان حائط دائري آخر يحوط بالصخرة المرتفعة عن الأرض نحو متر ونصف متر.

ثم دخلنا في سرداب مضاء بالكهرباء لنصبح بعد ما انحدرنا إليه بدرجات تحت الصخرة.. ثم انعطفنا إلى المسجد حيث أُسري إليه بالنبي الهاشمي ﷺ فرأيناه مسجدًا كبيرًا.. قد جدّد بناءه عبدالملك بن مروان الأموي.

وقد فُرِش كلّه بالسجّاد الثمين، كما أُشيد عليه سقف منمنم لطيف يُبهر العين فترجع خاسئة وهي حسيرة، وقد زُخرِف بعض سقفه بالزجاجات الملوّنة التي تنعكس فيها أشعة الشمس، لتنقلب إلى الألوان الزاهية الجميلة وتترقرق على الفراش المبسوط.

فصلّينا هناك صلاة التحيّة، وغادرناه في رغبة إليه واشتياق.

ثم يمّمنا شطر مدينة الخليل، حيث الأنبياء عليهم السلام، وحيث الغار المقدّس. فأوّل ما لفت انتباهنا، هو السياج الحديدي الذي جزّأ أرض فلسطين المباركة عن البلاد الإسلامية، والذي جعل في الواقع حدًّا بين قلوب المسلمين وأنفسهم، فعشعشت بها جرثومة الفساد رغمًا عن مئات الملايين من المسلمين.

فتحرّكت –بنفسي– ثورة الدم الإسلامي، فتاقت نفسي إلى أخذ الثار وإعادة هذا الجزء الحبيب من الوطن الإسلامي إليه، واستخلاصه من هذه العصبة الباغية اللئيمة.

وهنالك تسلسل في خاطري، ودارت في فؤادي الأفكار.. حيث فكرت في أنّ فلسطين المغصوبة، لو كان لها مخلصون لما بقيت مجزّأة حتى اليوم، يترنّح فيها اليهود الذين ضُرِبت عليهم الذلّة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله.. فلفظهم أينما تولّوا.. ثم جاء بهم الاستعمار اللعين إلى هذه البلاد، ليغصبوا خير بلادنا.. وهم شرذمة قليلة القوات، ثم تتخاذل أمامها القوات الإسلامية بخيانة حكامها، وإلّا فالمسلمون أقوى من اليهود، وممن جاء بهم إلينا.

أليس المسلمون ستمائة مليون[1] أو يزيدون؟ أليسوا

(١) كان هذا العدد هو الإحصاء المعروف ذلك اليوم.

هـم الذين سـحقوا جبـاه الجبابرة والطواغيـت، ووطؤوا تيجانهـم وأخضعوهـم لسـلطان الدين.. وهـم مع ذلك قلّـة قليلـة ليس لهـم أي نـاصر في الأرض، ولا أي مأوى في البلاد؟.

أليسـوا بقادرين على محو اليهـود وآثارهم عن وجه البسيطة وذروهم ذرو الريح الهشيم؟.

ثم العجب من بعض البلاد الإسـلامية التي تدَّعي الإسلام وتعترف بإسرائيل!.

هـذه هـي خواطـري الآسـفة حينما كنّـا نضرب في الجبـال العشـبة ونرى عـلى الجبل سـياجًا حديديًـا يعيش وراءه العرب، كما يترنَّح فيه اليهود.

إلى مثوى الخليل عليه السلام

وهكـذا.. مررنـا بالرحـاب والضيـاع المبعثـرة بين الجبـال الجميلـة، والوديان الخضر المزروعـة، بحيث ترانا على القمة العالية حينًا، وفي حضيض الوادي العميق حينًا آخر.

ولم نلبـث كذلـك إلاّ سـاعات قليلة حتـى أطللنا على مدينـة آهلـة ذات أبنيـة قديمة، وشـوارع جديـدة، تلك هي مدينة الخليل. فاخترقنا الجموع المتدفقة من الحجاج والزائرين حتى بلغنا بناءً واسعًا يُرقى إليه بزهاء ثلاثين درجة حجرية، صعدناهـا لنصـل إلى فسـحة جاوزناهـا إلى أخـرى كبيرة

وانعطفنا منها إلى مزار سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام.

وهناك -لدى ضريحه المقدّس- ينتبه الزائر إلى عظمة الأنبياء، لا سيّما أولي العزم منهم، فهم في ذروة العلياء يسيطرون على بني آدم ليهدوهم إلى الطريق اللاحب، والصراط المستقيم، مع أنهم معهم وفيما بينهم يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق..

فهذا النبي المؤمن المخلص الأوّاب، قد حارب الضلال، وعبادة الرجس من الأوثان، وهو فرد وحيد، فقد كَسَّر الأصنام في طور لطيف يعرضه القرآن الكريم، ثم عارض طاغوت زمانه الجبّار، نمرود الأثيم، حتى قال: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[1].

فأضرموا النار الملتهبة الكثيرة، فجعلوه في المنجنيق[2]، ليُقذف فيها وهم عنها بعيدون.

فأصبحت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم عليه السلام وهو في صمود ورسوخ، ثم نفوه عن البلاد، وفعلوا به ما فعلوا وهو في عزم حاسم وعقيدة قوية صامدة.

وبعدما زرنا النبي إبراهيم عليه السلام، عطفنا إلى مزار سيّدتنا سارة عليها السلام زوجة إبراهيم عليه السلام، وزرنا معها

(١) سورة الأنبياء، آية: ٦٨.

(٢) المنجنيق: آلة حربية كانت تُقذف الأحجار بها لتُرمى الحصون والقلاع، وأول من اخترعها هو هذا الطاغوت في هذه القضية بوحي من الشيطان الرجيم.

ولدها النبي إسحاق عليه السلام، كما زرنا الأنبياء المدفونين في الغار.

وهناك -في إحدى زوايا المزار- كان قبر النبي يعقوب عليه السلام من نسل إبراهيم ووالد الأسباط، وفي مخرج المزار كان يشاهد مزار النبي يوسف بن يعقوب عليه السلام ذي القصة الجميلة في كتاب الله العزيز.

إلى مرقد موسى الكليم عليه السلام

ثم غادرنا مراقد الأنبياء عليهم السلام، بعدما أفعم نفوسنا نور الإيمان المشرق من ذكريات الإيمان والإخلاص والجهاد، المتمثلة في الدعاة إلى الله، الذين هم في قمّة الكمال الإنساني، صامدون أمام جميع التيارات الجارفة؛ النفسيّة منها والخارجية.

غادرناها إلى عمان وقطعنا الطريق نفسها، وبعد أن جاوزنا عشرات الفراسخ عطفنا عن الطريق لنزور النبي موسى عليه السلام.

فأتينا الذروة من جبل صغير، قد استقرّ عليه المرقد الشريف في بساطة، فدخلنا حيث الدهليز يفتح في فناء مربّع تقريبًا، وإنّا نرى الفجور والمنكرات قد ملأت الفناء الكبير.

فالرجال مختلطون بالنساء اختلاطًا شنيعًا، وهن سافرات متبرّجات وهم يتفرّجون عليهن بأعين حداد، وشبق عنيف.. فيا للحسرة على هؤلاء الرجال ويا للأسف من غفلة هذه النسوة، الغافلين والغافلات عن الواحد القهّار.

وأسوأ من ذلك تلك الطبول اليدوية التي كانت تُستعمل بكثرة مدهشة حتى قرب مرقد النبي العظيم.. والمنظر كان مؤسفًا جدًّا، حينما كان يشاهد الزائر رجالًا نسوا ذكر ربّهم، فغرّهم الشيطان وهداهم سبيل النار، فاستأثروا الرقص بين النساء، وفي مرقد داعٍ من دعاة الله، وفي يوم الجمعة المبارك، يوم الطاعة والعبادة والصلاة والدعاء!! فأضحوا في حفلة راقصة بشعة تبعث الحزن والألم البالغين، في نفس زائر رتّل القرآن وآياته التي تعرض قضية النبي موسى عليه السلام التي تبلغ زهاء سبعين طائفة في نحو سبعين موضعًا من كتاب الله المجيد، ثم كان يطوي الليل والنهار على حب هذا النبي الكريم، فالآن يأتي إلى مزاره ليستمد من نوره، ويستوحي من أفكاره فيرى هذه المأساة المؤلمة.

حتى أننا حينما ذهبنا إلى المرقد نفسه، حيث الضريح المقدّس رأينا النغمة لم تتبعثر والطبل لم يصمت بعدُ، فهو في دويّه الأول، والمتبرجة في غرورها.

الله أكبر!.

هل يبلغ الضلال بإنسان هذا المبلغ؟ أم هل يصبح الإنسان حينًا لا يرى للمقدّس أي معنى، ولا للطاعة والعبادة أية سلطة على نفسه؟ ثم وهو يدّعي الإسلام والتمسك بشريعة الله النازلة على النبي محمد صلى الله عليه وآله، ويؤمن بـ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾. ويؤمن أيضًا بأن

الجنة والنار حق، وأن الله يبعث مَنْ في القبور.

ثم هذا الرجل -مع كل إيمانه- يقضي ساعات في سبيل الهوى ورغبات نفسه الأمّارة بالسوء، فيبيع آخرته بثمن بخس، ولهو دنيء، ثم -وبعد هذا وذاك- يختار للهوه أحسن الأوقات في خير يوم -يوم الجمعة- حيث أبواب رحمة الله مفتوحة للسائلين، وعند أفضل البقاع، عند النبي العظيم، صاحب التوراة، موسى النبي عليه السلام.

الله أكبر!! هل ينزل الإنسان إلى هذه المرتبة من الحضيض فيجسّم الرذيلة بأبشع ألوانها، ويمثّل الصفاقة بأسوأ صورها؟.

ذلك ما رأيناه في مرقد النبي موسى عليه السلام ثم غادرناه راجعين إلى عمّان وقد ملأ قلوبنا الأسف لزيارتنا هذه المراقد المباركة في يوم الجمعة الذي هو عطلة رسميّة، حيث يخرج فيه الناس إليها للزيارة والتفرّج فيأتي الصحيح والفاسد إليها جميعاً.



العودة إلى عَمّان

غادرنا إلى مدينة أريحا (إحدى المدن القديمة الموغلة في القدم)، فرأينا في طريقنا إليها بيوتًا ومساكن قلائل، قيل لنا إنها دور اللاجئين، فتجسّمت أمامنا مأساة فلسطين من جديد.

حيث غصبت الفئة الإسرائيلية المجرمة مساكن هؤلاء، فظلّوا يعيشون في مثل هذه البقعة القاحلة.

ثم لم نلبث فيها إلّا ساعات معدودة حيث غادرناها إلى عمان ثانيًا، فلم نر إلاّ الجبال العشبة، والفجاج المعمورة، والوديان المعشوشبة، والمياه العذبة تخرج من الصم الصياخيد فراتاً سائغاً للشاربين.

وبعد قطع المسافة أطللنا على جبال عمّان المعمورة الآهلة، فلم نكن إلّا حامدين البارئ على جميل النعم وجزيل الآلاء.

على متن الطائرة

ثم وبعد ما بتنا في عمان ليالي معدودة، عزمنا على الرحيل إلى الديار المقدّسة، فاتفقنا مع شركة الطيران

السعودية على السفر إلى المدينة المنوّرة مباشرة من دون أن نهبط في جدّة ومنها إلى المدينة، بيد أن النزاع المضرم بين الطيران السعودي والأردني، سبّب الهبوط في جدّة كما سبّب تبديل الطائرة السعودية إلى الطائرة الأردنية.

فامتطينا متن الطائرة الأردنية ذات محركات أربعة مُيمّمين وجوهنا شطر جدّة، وحينما جلستُ في الطائرة تذكّرت الأخوين الأمريكيين مخترعي هذا المركوب السمح الذلول، الذي فيه دعة وراحة مع سرعته الخارقة، فهو يطوي الفراسخ الكثيرة باختراق الهواء في ساعات قليلة.. فبينما كانت السيارات تقطع المسافة بين عمّان والمدينة في أيام عديدة، أصبحت الطائرة تقطعها في نحو ساعتين ونصف الساعة فقط.

لكن فكّرت حينئذٍ حول كلام أحد رجال الإصلاح حيث يرجّح الحضارات الهنديّة الأولى على الحضارة الغربية الحديثة فيقول: إنّ الوسائل النقلية قد أكثرت الفساد، وجَرّت إلى الأرض الويل والخراب، فبينما كانت البلاد آمنة وديعة قبل هذه الحضارة أصبحت مضطربة متوترة بعدها.

أضف إلى ذلك ما سَبّبته هذه الحضارة الوافدة من العادات اللئيمة والأفكار الباطلة التي أصبحت ويلًا على هذه الأمة المسكينة.

وحينما حاولت أن أجمع بين ما أتى به وبين الحضارة

الحديثة، بان كلامه حقاً وهو مصيب. في حين أن علاجه للويلات والكوارث بهذا الأسلوب غير صحيح، لأنّ المآسي والنكبات أصابت الشعوب عن طريق هذه الوسائط النقلية الموجودة -كما يقول هذا المصلح- فلولاها لم يكن لتلك النكبات الفادحة والمآسي الدامية أي مظهر في البلاد، بيد أنّ ذلك لم يكن بسبب وسائل النقل مباشرة وإنما كان لأجل إصابتنا بها عن هذه الجهة.

فإذن معالجة -هذا المصلح- لهذه الويلات بهذا الأسلوب حيث يُعلم من ثنايا كلامه، أن اللازم ضرب الحضارة الوافدة وما واكبها عرض الحائط، غير صائب.

فالواجب أخذ ما حسن منها ولم يضر بالناس والبلاد، فنستعمله في المصالح العامة، والغايات الحسنة، ثم طرح كل رذيلة واكبت هذه الحضارة، أو فكرة استوردها بنو الحضارة، فمثله كمثل سبيل يوصل السائر إلى غايتين إحداهما الحسنى وثانيتهما السوأى، فهل يجب على الإنسان ترك السبيل الصالح -ولو إلى الهدف الصحيح- لأجل الغاية الفاسدة؟.



في مطار جدّة

وهكـذا كنت أفكر وأنا ممتطٍ صهـوة هذا المركوب الذلـول حتى رأينـاه يهبـط كأنه يخضـع لجاذبية الأرض وضغـط الهواء، ومـا زال يخفف سرعته، حتـى اقتربنا من شوارع المطار المزيّنة بالمصابيح الكهربائية التي نُصِبَت على حافّتي الطريق.

وما لبثنا حتى استقرت الطائرة على أرض المطار، وأخـذت تزحف بغير ما اختيار حتـى وقفت، فنـزلنا عن متنها حاملين بعض الأمتعة، متجهين نحو مدينة الحجاج، فوردنـا بهـوًا كبيرًا نظر فيـه إلى جوازاتنـا، وأمتعتنا، لكيلا يكون بها ما لا يسمح به القانون.

وفي هـذا البهـو كانت ضجـة صاخبة مـن الحجاج الملبـين -رغم أننا قد وردناه في سـاعة متأخرة من الليل- وكلٌّ منهـم جاء من قطر ويحمل أفكاراً.. جمعهم -في هذه الديار المقدسـة- كلمتـا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» فاحتملوا الصعوبات واجتازوا العقبات، وتجشّموا عناء السفر باذلين المال الكثير في سبيل الله وزيارة بيته العتيق.

فـما زلنـا في ذلـك البهـو، حتـى اكتملـت الرسـوم

الحكومية المقررة للحاج، فجئنا -بعد ذلك- إلى حيث البناء الضخم بجنب المطار والذي يُسمى بـ(مدينة الحجاج) وهي مدينة صغيرة في بناء واحد، ذات طوابق ثلاثة من الحجرات؛ الطابق الأول لوكلاء المطوّفين، الطابق الثاني والثالث للمسافرين والبعثات الطبية. وبقينا هناك في الغرف المعدّة للراحة ليلتنا تلك، وفي صباحها اتصلنا بالفئات المختلفة الوافدة من سائر الأصقاع، فاكتسبنا المعلومات الكثيرة عن البلاد وأهلها.

إلى المدينة المنوّرة

ثم يمّمنا شطر المدينة المنوّرة مثوى النبي ﷺ ومنبثق الإسلام الذي انفجر فيه النور، ينوّر الأصقاع والأقطار ويهدي الضالين ويرشدهم إلى الصراط المستقيم.

فمررنا -في طريقنا إلى المدينة المنوّرة- بموضع غزوة[1]، بدر[2]، حيث نصر الله نبيّه وأنزل ملائكة مسوّمين يحاربون مع النبي وأصحابه.

وقصة ذلك؛ أنّ كفار قريش تحرّكوا يقودهم عتبة وشيبة والوليد بن عتبة وأبو جهل وأبو البختري ونوفل ابن خويلد وغيرهم من صناديد العرب، نحو المدينة لحرب الرسول الأكرم.. يحملون النساء والمغنيات لطربهم وحثهم على الحرب، وهم تسعمائة وخمسون رجلاً ومائة فرس وسبعمائة من الإبل.

وخرج رسول الله ﷺ في ٣١٣ مسلمًا من المدينة

---

(١) حروب النبي على قسمين: قسم باشر النبي ﷺ فيها بالحرب وتسمى غزوة. وقسم يرسل النبي فيه سرية وتسمى بعثه.

(٢) اسم بئر وقعت الواقعة عنده ودُفن فيه قتلى بدر المشركون بعد انتهاء المعركة.

إلى جهة مكة المكرّمة، حتى وصلوا إلى أراضي بدر، فشبّت نار الحرب فيها بعدما أرسل النبي ﷺ إليهم رسولًا يخبرهم بأنه لا يريد الحرب قائلاً: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَبْدَأَ بِكُمْ فَخَلُّونِي وَالْعَرَبَ فَإِنْ أَكُ صَادِقًا فَأَنْتُمْ أَعْلَى بِي عَيْنًا وَإِنْ أَكُ كَاذِبًا كَفَتْكُمْ ذُؤْبَانُ الْعَرَبِ أَمْرِي فَارْجِعُوا»[1].

فلم يزدهم إلاّ إصرارًا على الحرب، وقد رجع بعض قوّادهم عن عزمه فلاموه على ذلك، فعاد ناصرًا للحرب كعتبة، فإنه ذهب إلى أبي جهل يطلب منه العودة إلى مكة وعدم حرب الرسول، فقال له أبو جهل: «نَظَرْتَ إِلَى سُيُوفِ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَجَبُنْتَ وَانْتَفَخَ سَحْرُكَ...».

فغضب منه عتبة وكان أول من بارز المسلمين خوفًا على سمعته، حتى لا يقول الناس أنه جبان، فبرز هو وأخوه شيبة، وابنه وليد بن عتبة، وطلبوا المبارزة من المسلمين، فبرز إليهم حمزة -عم النبي ﷺ- وعلي بن أبي طالب عليه السلام وعبيدة، بعدما برز إليهم ثلاثة من الأنصار فأبوا المقاتلة معهم وقالوا لرسول الله: أرسل إلينا أكفاءنا.

فجابه علي عليه السلام الوليد بن عتبة، فضربه على يده وكتفه، فلاذ بأبيه عتبة، فلم يمهله علي عليه السلام حتى ثنّاه وقتله.

وقاتل حمزة عليه السلام شيبة فتحاربا معًا حتى كُسِرت

(١) بحار الأنوار، ج٩، ص٢٥١.

السيوف، وحُكّمت الرماح فلم يتغلب أحدهما على الآخر، حتى جاء علي وقد فرغ من الوليد فضربه ضربة قضى عليه بها. وبارز عبيدة عتبة -وكلاهما شجاعان- فضرب عبيدة ضربة فوقع ولم يمت، كما ضرب عتبة ضربة وقعت على ساق عبيدة، فلما فرغ علي من قتل الوليد وشيبة جاء وأجهز على عتبة وحمل هو وعمّه حمزة عبيدة الجريح إلى خيام المسلمين، فوقع الرعب العنيف في قلوب الكفار بهذه القضية التي وقع فيها صناديد العرب وقوّاد جيش أهل مكة.

ولكن أبا جهل -لعنه الله- حرّض المشركين على الحرب فهجموا على المسلمين مرة واحدة، فأمر النبي ﷺ أصحابه ليقاتلوهم قائلاً: «غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ وَعَضُّوا عَلَى النَّوَاجِذِ»[1].

وراح النبي ﷺ يناجي ربّه، ويدعو على الكفار، ويطلب منه النصر الموعود، فنصر الله المسلمين بما أنزل من الملائكة المسوّمين، وذلك حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[2].

فانهزم الكفار هزيمة شنيعة، وأعقبهم المسلمون

(١) بحار الأنوار: ج١٩، ص٢٥٥.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٢٣/ ١٢٥.

وأسروا منهم سبعين رجلاً.

فلما وضعت الحرب أوزارها كشفت عن سبعين رجلًا مقتولًا من صناديد العرب، فيهم: عتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة، وحنظلة بن أبي سفيان، وطعيمة بن عدي، والعاص بن سعد، ونوفل بن خويلد، وأبو جهل.

وقد قتل علي عليه السلام ستة وثلاثين من شجعان الحرب وهو شاب في مقتبل العمر.

وبعد ما مكثنا في قرية بدر دقائق قليلة جَدَدْنَا السير إلى المدينة المنوّرة، فما لبثنا إلّا مدة حتى أطللنا على منبسط من الأرض استقر عليه بلد مقدّس وفي وسطه تقريباً حرم النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وحوله مسجده المبارك، وعليه منائر أربع.

فلما اخترقنا بعض شوارع المدينة رأينا أن أكثر الأبنية قديم مشرف على الخراب، رغم أنها المدينة التي لها في تاريخ العالم -لا المسلمين وحدهم- شأن عظيم.. فإليها قد هاجر النبي، ومنها انتشر نور الوحي وغمر البلاد، وفيها مثوى أفضل مخلوق خُلِق، وأعظم موجود وُجِد، وأقرب من تقرّب إلى الله زلفى، ذلك هو محمد النبي الأمين صلى الله عليه وآله، ومع ذلك تبقى مدينة الرسول خربة مهجورة، وتضحى غيرها العاصمة وغيرها المعمورة الآهلة.

وأيما كان فقد بقينا هناك أيامًا معدودات.

زيارة البقيع

في طريقنا إلى زيارة النبي ﷺ زرنا البقيع، فرأيناه مقبرة كبيرة وردناها، فانعطفنا -أولًا- عن اليمين لنزور الخيرة من آل الرسول، وهم:

١- الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب المجتبى عليه السلام سبط الرسول ﷺ.

٢- الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، زين العابدين عليه السلام.

٣- الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام.

٤- الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

ولكن كيف زرنا؟.

زرنا والنفوس متفجعة بالألم والعيون سائلة بالدموع، وكأننا وقفنا على القبور ثكالى، وقفنا على نعش الشباب، فترى الدموع تجري بغير ما اختيار، والقلوب تجزع، وتتوق إلى أخذ الثار، مفكرة في تاريخ الحق المؤلم. كيف غُصِب الحق؟. وكيف قُتِل أهل الحق تقتيلًا؟ ونُفوا عن الأوطان تشتتًا مؤسفًا؟.

مشرّدون نفوا عن عقر دارهم
كأنهم قد جنوا ما ليس يغتفر

فنرى ذرّية الرسول، وهم سادات الخلق، بنص وعقل.

أما النص: فالروايات الجمّة التي رُويت عن النبي ﷺ وهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى..

وأما العقل: فلأنهم كانوا أفضل الناس في كل شيء، أكثرهم علماً، وأحسنهم عملاً، وأشرفهم نسباً، وأسمحهم خلقاً.. وترجيح غير الأفضل مع وجود الأفضل شيء قبيح.

خير الفروع فروعهم
أصولهم خير الأصول
آل الرسول.. ونعم أكفا
ء العلى آل الرسول

وهم أحد الثقلين في كلام النبي ﷺ إذ يقول: **«إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقْلَيْنِ كِتَابَ الله وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي»**[1].

وقوله ﷺ: **«إِنَّ أَهْلَ بَيْتِيَ الهُدَاةُ بَعْدِي، أَعْطَاهُمُ الله فَهْمِي وَعِلْمِي، وَخُلِقُوا مِنْ طِينَتِي؛ فَوَيْلٌ لِلْمُنْكِرِينَ حَقَّهُمْ مِنْ بَعْدِي، القَاطِعِينَ فِيهِمْ صِلَتِي، لا أَنَالَهُمُ الله شَفَاعَتِي»**[2].

(١) مستدرك الوسائل: ج٧، ص٢٥٤.
(٢) بحار الأنوار: ج٢٣، ص١٣٧.

وقال ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ دَخَلَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ»[1].

وفيهم نزلت آيات من القرآن الكريم، فهم أهل البيت في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2].

وهم أولوا الأمر، الذين تجب طاعتهم والرضوخ لأحكامهم، إذ يقول الباري سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[3].

وقد أمر الله نبيّه الكريم أن يبلّغ أمّته بأن لا أجر لي إلّا حب أهل بيتي من ذوي القربى، فقال عزّ وجلّ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾[4].

ثم نراهم: مقتّلين مشرّدين، يُقتل رجالهم وتُسبى نساؤهم، ومادامو طيلة حياتهم المباركة مهددين بالقتل والنهب أو أحلاس السجون، وأحلاف المظلومية!.

ثم نرى أمام أعيننا صور قبورهم المهدومة التي ما بقيت منها قبّة ولا بناء ولا روضة ولا فناء، وما كان سوى مستطيل طوله نحو مترين وعرضه زهاء متر ونصف المتر قد نصب عليه أحجار أربعة، كل حجر رمز لقبر واحد منهم عليهم السلام.

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٣، ص١٢١.
(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٣.
(٣) سورة النساء، آية: ٥٩.
(٤) سورة الشورى، آية: ٢٣.

الله.. كيف يصبح حال المحب الموالي، حين يرى قبور أئمته المحقّين تصهرها الشمس، وتسخو عليها الهاطلات، ويُخيّم عليها ظلام -في الليل- مطبق وهم أحياء عند ربّهم يرزقون؟ ولست أدري، بم يتمسّك الذي يذهب إلى أن القبور بدعة، وأن زوّارها كفار مشركون؟ سوى ألفاظ جوفاء، وسخافات هزيلة، وأفكار عنيدة بالية، لم يعرفوا غيرها وغير كلمة الكفر والضلال، والشرك والإلحاد، فطفقوا يستعملونها دون أي مبرر معقول.

فهل تصبح مجرّد هذه الألفاظ الجارحة، برهاناً لدعواهم السخيفة ودليلاً صادقاً لرجل، سافل اتبعه الأرذلون؟!.

يقولون: إنه عود إلى الجاهلية الجهلاء.

الله أكبر! كيف يصح لنا أن نقبل أن زيارة القبور محرمة، وهو مندوب مستحب لدى الدين الحنيف؟.

أَوَليس النبيّ صلى الله عليه وآله قد قال: «**مَنْ زَارَنِي وَلَمْ يَزُرْ عَمِّي حَمْزَةَ فَقَدْ جَفَانِي**»[1].

أَوَليست الروايات الكثيرة المصرّحة بجواز زيارة القبور، بل الآمرة بها، موجودة في كتب الفريقين؟.

فقد رُوي عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**زُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الْآخِرَةَ**»[2].

---

(١) مستدرك الوسائل: ج ١٠، ص١٩٨.

(٢) سنن ابن ماجة، ج١، ص٥٠٠، الحديث ١٥٦٩.

كما رُوي في الصحيح: أن النبي ﷺ زار شهداء أُحد وحضر لزيارة البقيع.

ثم بعد كل ذلك هل أصبحتم أعلم من العلماء الماضين الذين يصرّحون بندب زيارة القبور واستحبابها المؤكد؟!.

البناء على القبور

كيف يصبح البناء على قبور الأنبياء والصلحاء عليهم السلام شركًا وعبادة من دون الله والعالم كلّه والمسلمون خاصّة، يبنون الأبنية الضخمة، ويصرفون الأموال الطائلة في سبيل إحياء ذكريات العظماء، لكي تدفع بالناس نحو الكمال، والمعاني الخيّرة؟.

والحق هو نوع من الفضيلة، تقود الناس إلى رفض الشرك والكفر.

وإذا كان الناس كلّهم في جميع العصور الغابرة منها والحاضرة يتخذون من مثاوي عظمائهم رمزاً للفضائل والمكرمات المتجسدة فيهم، وكانت هذه سيرة العقلاء والمسلمين، فما الذي يمنعنا من أن نتبع السيرة ونحن أيضًا عقلاء، والشرع لم يأتنا بما يخالف العقل.

كما لم نجد من المسلمين منذ زمن صاحب الرسالة إلّا تأييدًا وترغيبًا لهذا، وحثًا على مثل تعظيم الأنبياء والعلماء بالبناء على قبورهم.

أوَما رأينا قبر النبي الأعظم ﷺ معموراً مزاراً منذ دُفِنَ حتى اليوم؟.

أوَليست مزارات الأئمة عليهم السلام ومراقدهم المقدّسة، وكذلك مثاوي العلماء كانت معمورة بأبنية قديمة موغلة في القدم، والتاريخ شهد بذلك؟.

ولم ينكر ذلك أحد العلماء المعاصرين للتابعين أو تابعي التابعين الذين يتسلسل أساتذتهم إلى زمن النبي ﷺ، ومثل هذه السيرة الحتمية حجة بلا ريب.

يقولون: إنّ البناء عليها بدعة، وثم ماذا؟ هل كل بدعة حرام.. يا مساكين؟ البدعة في دين الله حرام، لا كل شيء جديد، وإذا كانت البدعة محرمة من كل شيء، فإذن أنا أعدد لك المحرمات:

١- ركوب السيارة محرم لأنه بدعة.
٢- ركوب الطائرة، الباخرة، القطار، وكافة وسائل النقل حرام، لأنها بدعة، وكل بدعة حرام.
٣- استعمال الكهرباء بكافة أنواع الاستعمال محرم لأنه بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.
٤- استعمال التلغراف والتليفون والمايكروفون حرام.
٥- الجرائد والمجلات، الكتب المطبوعة بسائر أقسامها حرام يجب الاجتناب عنها جميعًا.

وأخيرًا كل شيء جديد من المأكولات والملبوسات والمركوبات وكل ما يستعمل في الحياة حرام، لولا أن

يكون نموذج منه في زمان النبي ﷺ!.

وهذا شيء واضح البطلان، لا يحتاج إلى دليل أو برهان.

وإن قلت: إن الحرام هو البدعة في الدين لا كل بدعة في الحياة.

قلت: أوَأصبح البناء على القبور بدعة في دين الله، حتى يصبح حرامًا؟ أكانت القبور دين الله حتى أمسى البناء عليها بدعة فيها؟.

أم كان البناء دين الله المنزل حتى أضحى وضعه على القبور بدعة فيه؟.

أم ماذا؟!.

لماذا لا يصبح بناء المساجد بالكونكريت وفرشها بالرخام القشيب ذي الألوان الزاهية، وطبع القرآن وكتب الحديث في المطابع الميكانيكية الحديثة، والصلاة من وراء المكروفونات، وإلقاء الخطب الدينية من وراء الإذاعات وشاشات التلفزيون و.. و.. لماذا لا يصبح كل هذا بدعة في دين الله الحنيف؟!.

ثم أي فرق ترى بين البناء على قبر عظيم، وبين الاحتفال بذكرى رجل عظيم أو الاحتفاء به بأي قسم آخر؟ فكيف أصبح البناء بدعة محرمة فحسب؟.

ثم إن ما تذهبون إليه -يا أيها الضالّون- مليء ببدع في الدين التي لا ريب فيها أبدًا، عالجوها -إن لم تكونوا مرضى-

قبل أن تعالجوا بدعة غير معلومة من أي مذهب أو دين آخر.

سلّمنا بكل ذلك، لكن إذا أصبح البناء شيئًا حرامًا، كان في هدمه شق عصا المسلمين وجرح عواطف مئات الملايين من المسلمين، فهل من الصحيح أن تبيعوا مئات الملايين من المسلمين في سبيل النهي عن شيء منكر واحد حسب تصوركم، والمنكرات كثيرة في بلادكم، والفواحش تفشو كالطاعون، المحرمات المصرّح بها في كتاب الله العزيز، كالميسر، والتبرج تعلن في دياركم، وأنتم متمسكون بهذه البدعة المجهولة الهوية، لتشقّوا بها عصا المسلمين، وتقطعوا حبلهم المتين؟!.

نرى المستعمر الغاشم قد استولى على جميع مجالات حياتكم، حتى اقترب أن يستولي على أفكاركم، ودعاة التبشير المسيحي قد كثروا في أطراف بلادكم، وطفقوا ينشرون دعاياتهم المسمومة، وأنتم لازلتم تقولون: إن البناء على القبور شيء محرم فاجتنبوه، ثم تقولون: إنه كفر وشرك، والمتبرّكون بها كفار مشركون!! أليس هذا التكفير لأتباع رسول الله ﷺ وأشياع أهل بيته عليهم السلام من المسلمين محذور ليس كمثله محذور؟.

زيارة النساء للقبور

ثم من قال لكم: إن زيارة النساء للقبور شيء محرم؟.

ألم تعتد النساء زيارة النبي ﷺ؟ ألم تزر فاطمة

الزهراء عليها السلام التي قال فيها النبي: «**رِضَا فَاطِمَةَ رِضَايَ، وَسَخَطُ فَاطِمَةَ مِنْ سَخَطِي**»[1]، وهي أول امرأة تمثّلت الفضائل والمكرمات، واكتملت فيها المحاسن التي نزل بها الوحي على متمم الأخلاق؛ ألم تزر قبر عم أبيها حمزة سيّد الشهداء، وكانت تزوره في كل اثنين؟.

ثم إن كان بنظرك التقليد واجباً، فنحن نقلّد جعفر ابن محمد الصادق عليه السلام، الإمام المفروض علينا طاعته، وهو يجوّز زيارة النساء للقبور.

وإن قلت: يجب الاجتهاد، فنحن مجتهدون، نفتي بعدم حرمة ذلك.

ومهما يكن من أمر، فلا نقلّدك أنت حتى تنهى نساءنا عن الزيارة.

التبرّك بالقبور

ثم قل أيها الضالّ، مَنْ ذكر لك أن التبرّك بقبور الأنبياء والأولياء عليهم السلام شيء محرم، حتى يصبح مبررًا لضرب الناس بالخيزران المؤلم، أو بأي شيء آخر، ولمجازفتك بألفاظ الشرك والكفر وعبادة الأوثان؟.

أما تُقبّل أنت يد رئيسك، فلماذا لا يصبح ذلك من عبادة الإنسان؟.

أما تُقبّل أنت جلد القرآن بعدما تتمّ قراءته، فلماذا

(١) الإمامة والسياسة، ج١، ص٢٠.

لا يصبح من عبادة الجلد؟.

أما تُقبّل أنت -وكل عاقل أي شيء يتعلق برجل تحبّه أو إنسان تعظّمه- أفصار هذا شركًا، أو عبادة من دون الله؟.

أخي: الكفر هو الإلحاد عن خالق الكون.. والشرك هو العقيدة بأن مع الله إلهاً آخر، لا تقبيل قبر عظيم لأجل تضمّنه الرجل العظيم. ثم ولو كان هذا شيئًا منكرًا لديك أنت، لا يصبح منكرًا لديّ أنا. فأي شرع أمرك بأن تنهى من يرى الشيء معروفًا باعتبار مبدئك أنت الذي تراه منكرًا؟.. أثبت له أنه منكر ثم انههُ عنه.

وندع تفصيل هذه القضايا إلى مجال آخر لنرجع إلى سرد قضيتنا الأولى.

دموع هاطلة

ثم كنّا نزور القبور ونصلّي على سكانها، مستائين متأثرين بوقع المصيبة الفادحة، ناشدين التاريخ أن يكتبها لوعة لأمّة محقّة مظلومة.

قف أيها التاريخ نكتب لوعة
من أمة يجتاحها الإعصار
فقباب قادتها بعقر ديارها
رغمًا لنص نبيّها تنهار

ولكنّي مللت الوقوف ذات يوم بجنب القبور،

فاخترت الجلوس بجانبها على دكة مرفوعة أفكّر في مصير الحق والمحقّين.

فلما أن استقر بي المقام، بدرني رجل من الضالّين ينهرني نهرًا، ويقول بصوت خشن: قم مع الحاج، قم مع الحاج. لكنني رغم صوته المرتفع لم ألتفت إلى ما يريد، فلم أر إلا يده الخشنة كصوته تأخذ بما في يدي من الأوراق يجرها جرًّا.

فقمت ولم أتفوّه بشيء مع أني كنت قادراً على أن أواجه عنفه بعنف، إلا أنني صبرت وفي أحشائي تزجر النار، وتنضرم الشعلة الثائرة، اقتداء بجدّي أمير المؤمنين عليه السلام، حيث صبر قائلاً: «**فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى، وَفِي الْحَلْقِ شَجًا**»[1].

مراقد العظماء

ثم انعطفنا إلى مراقد سائر العظماء، كمزار حليمة السعدية مرضعة النبي التي افتخر بها رسول الله صلى الله عليه وآله.

ومزار سيّدنا إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وآله الذي توفي في صباه عليه السلام، ومزارات الآخرين من أولاد النبي الذين توفوا قبل النبي صلى الله عليه وآله.

ثم انعطفنا إلى مزار أُم البنين عليها السلام زوجة أمير المؤمنين علي عليه السلام ووالدة أربعة من أولاده وهم

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم٣، المعروفة بالخطبة الشقشقية.

(عباس، جعفر، عثمان، عون) وقد قدّمتهم أُم البنين ضحايا في سبيل الحق مع الحسين عليه السلام في واقعة الطفّ المؤلمة. وهناك عند قبرها ينتبه الإنسان إلى عظمة الشخصية المتجسّدة في هذه البطلة ويتذكّر قصّتين:

الأولى: عن أم البنين عليها السلام.

بعد ما توفّيت فاطمة بنت رسول الله وزوجة علي عليه السلام، أحب علي عليه السلام الزواج بامرأة، فاستشار أخاه عقيلاً في ذلك، فأشار عليه بوصلة الكلابيين بخطبة ابنتهم فاطمة هذه.. فاستحسن الإمام علي رأي عقيل، وذهب عقيل يخطب فاطمة من قومها فامتنعوا عليه، قائلين بأنّ داراً استقلت بضعة رسول الله وروحه المتحرّك وفلذة كبده أشرف من ابنتنا وهي لا تستحق هذا الفخر الكبير.

فأجابهم عقيل إن أخي يحب وصلتكم. فلبّوا دعوة مولاهم، مفتخرين بذلك كثيراً. فلما كانت ليلة الزفاف قال علي عليه السلام لفاطمة هذه: هل لكِ حاجة؟. فابتدرت قائلة: نعم يا أمير المؤمنين. قال لها: وما هي حاجتكِ؟ فأجابت: حاجتي ألّا تدعوني فاطمة وأولاد الزهراء يسمعون ذلك فيتذكّرون فقد أُمهم الرؤوف.

فقال لها: إذن اخترنا لكِ كنية فأنتِ أُم البنين!.

فهناك كُنّيت فاطمة هذه بأم البنين عليها السلام تفاؤلاً بمستقبل زاهر بأبنائها الكرام، وكذلك أنجبت لعلي عليه السلام ذكوراً أربعة..

الثانية: عن العباس بن علي عليه السلام.

كانت واقعة الطفّ وجرى ما جرى على الحسين عليه السلام وأصحابه، وكان العباس بن علي عليه السلام والولد الأكبر لأُم البنين وأشجع من كان مع الحسين عليه السلام، فكان صاحب لواء الحق، راية الحسين عليه السلام، وقد كان رجلاً وسيماً، طويل القامة، شجاعاً، صنديداً، فكان يجلس على الفرس المطهّم[1] ورجلاه تخطّان على الأرض.

فطلب من أخيه الحسين إذن الجهاد، لينطلق إلى الأعداء ويفنيهم عن آخرهم أو يبددهم طرائق قدداً، فأبى الحسين عليه السلام قائلاً له: أنت صاحب رايتي فإن قُتلتَ فمن ينصرني؟ ولمّا ألحّ على الحسين.. يقال أنه أمره بأن يسقي آل رسول الله، ويأتي إليهم بالماء من الفرات بعد ما كاد أن يقتلهم العطش الذي أذاقهم حرّه أصحاب يزيد عليه وعليهم لعنة الله وملائكته والناس أجمعين.

فأخذ أبو الفضل العباس عليه السلام الراوية (السقاء) منطلقاً بها نحو العدو كالليث الهصور، متوجهاً نحو المشرعة، ليملأ منه سقاءه، رغم أن الموكّلين بالماء هم أربعة آلاف رجل يمنعون أهل بيت رسول الله عن الماء المعين.. لكن أبا الفضل ابن من كان يطحنهم في الحروب إذا ازدلفت الأسنّة، طحن الرحى، ويذروهم ذرو الريح الهشيم، فهو ابن أشجع العرب، أسد الله الغالب، علي

(١) يقال جواد مطهم أي تام الحسن.

ابـن أبي طالـب، لا يهاب تظاهر جيش كجنح الليل، كلهم يتقرّبون إلى ربّهم بقتل سيّد الشهداء ظلماً وعدواناً.

فانقـض عليهـم انقضـاض الصقـر عـلى ضعـاف الطيور، فكشفهم عن المشرعة، وورد الماء وهو من العطش بحيـث كاد أن ينفطر به كبـده فيذهب ضحيّة الظمأ المرير، فاغترف غرفة بيده ليشرب من الماء شيئاً يسد رمقه، ويقوى به على الأعداء، ولكنه تذكّر عطش أخيه الحسين وأهل بيته وأولاده، فرمى الماء من يده وما ذاق قطرة منه قائلاً:

يا نفس من بعد الحسين هوني
وبعـده لا كنتِ أن تكونـي
هــذا حـسـينٌ وارد المنون
وتشـربيـن بـــارد المعـين
هيهـات ما هـذا فعال ديني
ولا فعـال صــادق اليقيـن

فانظـر إلى المـروءة والإنسـانية البالغتـين حدّهمـا الأقـصى، حتـى ليصبح الإنسـان ناسـياً حتى شـخصه في أحـرج المواقـف ليفدي الحق، ويضحّي في سـبيل المحقّين بنفسه، فيرد الماء المعين وهو يلمع، لمعان البيض الصوارم، وقـد بلغ العطش منه كل مبلـغ، ولم يذق -مع كل ذلك- قطـرة من الماء، مواسـاة لأخيـه، وما ذاقه حتى سُـقي من كأس المنون بعدما قطعوا الشمال منه واليمين.

أكرم به من مواسٍ لأخيه حق المواسـاة، فإذا كانت

المواساة متجسّدة في رجل فإنما هي في هذا الأخ المواسي.

وأكرم بأبيه سيّد الوصيين إمامًا، وبأمه فاطمة أم البنين، أمًّا مسلمة حقًّا.

ثم ولما زرناها وزرنا معها عمّة النبي صفيّة خرجنا من البقيع متوجّهين نحو مزار سيّدتنا فاطمة بنت أسد والدة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

عند مزار فاطمة بنت أسد عليها السلام

وعند مرقدها المبارك ينتبه الإنسان إلى معجزة الله في أمرها، وولادة نجلها العظيم وقصّة ذلك:

أنها قد أنجبت قبل علي عليه السلام لأبي طالب أولادًا ثلاثة: (طالب، ثم عقيل، وجعفر)، وقد ولدتهم في بساطة كأي أنثى تلد ولدًا، ولكن حين ولادة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام اشتدّ بها الوجع فأجاءها المخاض إلى بيت الله الحرام، فطافت بالبيت سائلة الربّ الودود أن يسهّل عليها المخاض، فإذا بها وقد انشقّ أمامها جدار من الكعبة بجنب الركن اليماني فدخلت فيها وعاد الشق ملتئمًا مثلما كان أولاً، وبقيت هناك ثلاثة أيام متواليات ضج فيها أهل مكة، فجاؤوا إلى باب الكعبة ليروا مصير زوجة سيّد من سادات قريش، ماذا جرى عليها بداخل الكعبة، فكلما عالجوا الباب عساه أن ينفتح عَصِي عليهم وبقي مغلقاً، بينما كان فتح الباب شيئًا ميسورًا في كل حين.. فانتشر الخبر في مكة المكرّمة بأن زوجة أبي طالب قد دخلت

الكعبة بشقّة حدثت إبان دخولها كما انسدّت فور ذلك.. وأصبح هذا حديث العبيد والجواري كما كان مدار كلام السادة والسيّدات.. أي صار (حديث الساعة) -على حد تعبيرنا اليوم- وكان الناس يتردّدون إلى المسجد يدخلونه أفواجاً أفواجاً، ويتشوّقون إلى كلام جديد حول الداخلة في البيت.

وفي اليوم الثالث حيث الناس يجتمعون متحلّقين حلقات حديث، وقد فرغ صبرهم عن معرفة مصير هذه السيّدة الجليلة، أماتت داخل البيت أم هي سالمة؟ وإن كانت سالمة فمن أين تأكل رزقها، ومن أين تشرب شربها؟.

وإذا هم -وقد صاخ الجو بالتوقّعات والأحاديث- بالبيت وقد انشقّ نفس المكان منه فانكشف عن شمس الهداية بهيجة مشرقة، تشعشع في دنيا من البطولات والمكرمات، تحمله فاطمة على أكتاف المجد والعلى لتُهدي إلى العالم يوماً جديداً، وأخذت فاطمة تخرج من البيت في هدوء وسرور، ودعة خاطر، واطمئنان بال.. كما أخذت العرب المجتمعة حولها تصفق مرحة بالمصير الزاهر الذي انتهى بها إلى هذا المعجز الخارق، وطفقت تحتفي بضيفين من ضيوف الله كريمين، وتحتفل بهما أيّما احتفال[1].

(١) حديث ولادة الوصي عليه السلام في الكعبة شيء لا ينكر قد اتفق عليه الفريقان ومن أراد مزيداً من المعلومات حول الموضوع فليراجع موسوعة الغدير، للعلاّمة الأميني، طبع إيران، ج ٦، ص ٢١/٣٨.

وأحـب أن أعيدهـا نغمـة شـعرية نسـمعها من فم الشـاعر المسـيحي (بولـس سـلامة) في كتابـه (ملحمـة الغديـر)، لأن فمـه أرقّ عـلى أذني من فم أي شـاعر آخر، وإن اتفـق عليـه الفريقـان، وغنّى به شـعراؤهما منذ اليوم الأول حتى اليوم:

حـرة لزّها المخاض فـلاذت
بستار البيت العتيق الوطيـد
كعبة الله في الشدائـد تُرجى
فهي جسرٍ العبيد للمعبـود
لا نساء ولا قـوابل حَفَّـت
بابنة المجد والعُلـى والجـود
يذر الفقرُ أشرفَ الناس فرداً
والغني الخليع غـير فريـد
أينـما ســـار واكبتـه جباه
وظهـور مخلوقـة للسجود

حتى يقول:

كـــان فـــجـــران ذلـــك الـيـــوم
فـجـر لـنـهـار وآخـر للوليد

وكـذلـك زرنا مثواها وهو مهدوم كالقبور الأخرى في تلك الديار، ثم غادرناها إلى بيت الأحزان حيث كانت تأوي فاطمة بنت رسـول الله بعد أبيهـا.. لتبكي على أبيها الذي فقدت معه كل شيء، بعدما قطعوا الأراك الشـجرة

التي كانت تستظل بها، فبنى لها الإمام علي عليه السلام بيتًا من سعف النخل وسمّاه بيت الأحزان.

زيارة الرسول الأكرم ﷺ

ثم ولمّا انتهى ما كان من الزيارات في طريقنا إلى مرقد النبي، أتينا نزور النبي محمداً ﷺ الذي يكلّ اللسان عن وصفه، ويرجع خاسئاً وهو حسير، كما يخون الفؤاد معصره ليعيا عن تحديد مداه البعيد، وتستهزئ القريحة العصماء بصاحبها إذا أنهكها لتقول وصفاً يجمع فضائل هذا النبي العظيم، هو أشرف خلق الله وأقربهم إلى الله زلفى، وأول من خلق فلبّى، وخير من طاف وسعى، خاتم الأنبياء، وسيّد الأصفياء، ورحمة الله على العالمين.

وبعدما اغتسلنا للزيارة تصفحنا بعض كتب الزيارة، فإذا بنا نرى من فضل زيارة النبي الشيء الكثير، يكفي أن يكون حافزًا للإنسان ليقصده من الديار البعيدة ويتجشّم عناء سفر طويل ليزور مرقده المبارك -ولو في غير موسم الحج-.

وهاك بعض الروايات:

- روى الشيخ في الصحيح عن أبي نجران قال: «سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الثَّانِيَ عليه السلام (الإمام محمد بن علي الجود عليه السلام) عَمَّنْ زَارَ النَّبِيَّ ﷺ قَاصِداً؟. قَالَ عليه السلام: لَهُ

الجَنَّةَ»[1].

- وعن السندي عن أبي عبد الله عليه السلام (الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام) قال: **«قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله مَنْ أَتَانِي زَائِراً كُنْتُ شَفِيعَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[2].

- وعن الصدوق مسندًا إلى الإمام الصادق جعفر ابن محمد عن آبائه عليهم السلام: **«قَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وآله يَا أَبَتَاهْ مَا لِمَنْ زَارَكَ؟.**

فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: يَا بُنَيَّ مَنْ زَارَنِي حَيًّا أَوْ مَيِّتًا، أَوْ زَارَ أَبَاكَ أَوْ زَارَ أَخَاكَ أَوْ زَارَكَ، كَانَ حَقًّا عَلَيَّ أَنْ أَزُورَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأُخَلِّصَهُ مِنْ ذُنُوبِهِ..»[3].

نحو مسجد النبي صلى الله عليه وآله

ثم ذهبنا نزور النبي في مرقده ومثواه، فوردنا مسجده أولًا وصلّينا به صلاة التحيّة حيث يُستحب الصلاة فيه استحبابًا مؤكدًا.

ففي الرواية المسندة إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أنه قال: **«يَا أَبَا ذَرٍّ صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا تَعْدِلُ مِائَةَ أَلْفِ صَلَاةٍ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَسَاجِدِ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ..»**[4].

---

(١) تهذيب الأحكام: ج٦، ص٤.

(٢) الفروع من الكافي: ج٤، ص٥٤٨.

(٣) ثواب الأعمال، ص٧٥.

(٤) وسائل الشيعة: ج٥، ص٢٧٢.

فلمّا أن دخلنا رأيناه مسجدًا واسعًا عظيمًا مرتّب البناء، متّسق القواعد، قد بُني بأشكال هندسيّة بديعة، نُقشت بألوان قشيبة وبهيّة موقرة، وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

- قسم بناه النبي ﷺ بنفسه وتبلغ مساحته زهاء ٧٠٥٠ مترًا مربعًا، وفي هذا القسم من المسجد تستقر الروضة التي هي من رياض الجنة وبها قد دُفِنت فاطمة الزهراء عليها السلام على القول الأقوى لدى الشيعة. وتبلغ مساحتها نحو ٢٢٥ مترًا مربعًا، وعُلّمت الروضة بالإسطوانات المزيّنة بالرخام الأبيض، كما قد وُسِم مسجد النبي ﷺ بالإسطوانات التي لُوّنت أطراف جوانبها السفلى بالإكليل.

- وقسم آخر هو الذي زاده الخلفاء، وهو القسم المسقّف من المسجد متجزئ عن الملحق الجديد.

- وأما القسم الثالث فهو الملحق الجديد الذي بناه الملك سعود وهو مبني أمتن البناء على نسق جميل.

وحيث كان المندوب صلاة التحيّة في المسجد، ثم إتيان الحرم الشريف للزيارة فصلّينا، ثم أتينا عند الضريح المقدّس الذي ضمن بين جنادله المباركة أكبر مخلوق خلقه الله القادر، وأعظم إنسان أبدعه الخالق ليصبح رائدًا في الحياة، وسيّدًا للجميع، فإذا بالزوّار والحجّاج قد وقفوا على ذلك الشاطئ الواسع، بقلب مفعم بالإيمان، ونفس

مليئة بالتواضع والإخبات، وأبصار خاشعة للعظمة الشامخة. وقد سادهم من تلك الومضات النيّرة نور هادئ، فأصبحوا يعالجون قضاياهم التي طالما جابهوها متحيّرين، أما الآن فأصبحوا يحلّونها في ظل ذلك النور البهي المشرق.

فطورًا يفكّرون في هذا النبي الأمين ﷺ، الذي تحمّل الصعوبات المتتابعة لأجلهم وفي سبيل هدايتهم إلى الحق والصراط المستقيم، حتى روي عنه ﷺ: «مَا أُوذِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أُوذِيتُ»[1]. فيزيد حبّهم العميق، وإخلاصهم الصادق لهذا النبي العظيم ﷺ.

وطوراً يلتمسون من نور عزيمته الصامدة ومضائه الصارم أن يزيدهم قوة من بعد قوة، يجتازون بها تلك العقبات الصعبة التي تتوسط صراط الحق اللاحب.

وطورًا يستعينون بالنبي الذي كان للمؤمنين أبًا رؤوفًا أن يحل لهم المشاكل، وينقذهم من المآسي النازلة بهم، ثم يشفع لهم إلى ربّهم الكريم ليغفر سالف معاصيهم ويدخلهم الجنّة التي عرضها السماوات والأرض!!.

زيارة فاطمة الزهراء عليها السلام

وعندما انتهينا من زيارة مرقد النبي ﷺ توجّهنا نحو الروضة، وهي ما بين القبر والمنبر لنزور ابنته

(١) بحار الانوار، ج٣٩، ص٥٦.

المظلومة فاطمة الزهـراء عليها السلام، ولكن ملء قلوبنا الحزن والأسـى العميقـان حينـما انتبهنـا إلى جهالـة مدفـن هذه المرْضِيّة الطاهرة، سيّدة نساء العالمين عليها السلام.

وتضاعـف فينا الأسـف والحسرة حينـما فكّرنا في التاريـخ الغابر الذي يسرد قصّـة البتول الزهراء عليها السلام في سطور من اللوعة والأسى، بدموع من العيون المؤمنة.

بـالله عليك هـل من الإنصـاف أن تبقى مـن النبي صلى الله عليه وآله ممثلة واحدة تجسّـدت فيها الرسـالة المحمّدية التي زقّهـا الرسـول لابنتـه فربّاها امـرأة تعيش كما شـاء الله أن تعيش امرأة في الحياة، ثم تؤذى أشـد الإيـذاء بعد رحيل الأب الرؤوف؟.

لقد نمـت في فاطمة الزهـراء عليها السلام -بتربية الأب الحنون- المؤهلات الدينية، والطاقات الإنسانية فأصبحت نموذجاً للوحي وتجلياً للرسالة.

وبذلك أضحت تسـتطيع أن تمثـل الوحي بأصدق مظاهره وتصوّر الحق في أروع مشـاهده، ثم لتصبح رائدة قافلة النسـاء إلى أقصى العالم وأسـوة حسنة للمؤمنات كما كان أبوها أسوة للمؤمنين.

ثـم اسـتخلفها النبـي صلى الله عليه وآله ولبّى داعـي الحق، فما كان جزاء النبي وما كان من حق ابنته المستخلفة؟.

لقد كان جزاؤها أن يُغصب حقّها!! وتُردّ شهادتها!! ويُحرق بابها!! ويُعصر جسـمها!! ويُسقط جنينها!! وتُمنع

عن كل شيء حتى عن البكاء لفقد أبيها، فتذهب إلى الصحراء في الحر اللافح لتستظل بأراكة، فتُقطع أراكتها لتجلس على الرمال الملتهبة، تحت وطأة حرارة الشمس المتصاعدة.. إلى أن بنى لها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بيتاً سمّاه (بيت الأحزان).

ثم لتموت مقتولة مظلومة فتُدفن في الليل ويُعفى ثراها، فكنّا نزورها ودموعنا تسيل حزناً على هذه المقهورة المغصوبة التي كابدت عيشاً مريرًا في حياتها فقُتلت في عنفوان شبابها.

ثم زرنا مع الزائرين فتوجّهنا إلى حيث مقام النبي صلى الله عليه وآله وصلّينا فيه. كما ذهبنا إلى مقام جبرائيل عليه السلام وصلّينا الصلاة المندوبة، وشاهدنا المنبر الذي كان يصعد عليه رسول الله صلى الله عليه وآله ويهدي الناس إلى ربّه، كما رأينا بيت فاطمة الزهراء عليها السلام في ناحية قبر النبي صلى الله عليه وآله. ثم وبعد ذلك غادرنا مرقد النبي إلى زيارة أخرى.

زيارة حمزة عليه السلام عمّ النبي صلى الله عليه وآله

ويممنا وجهنا شطر قبر حمزة (سيّد الشهداء) الذي قُتل في غزوة أُحد (وأُحد جبل هناك) فدفن هناك، وكان النبي صلى الله عليه وآله يتردد على مرقده وقبور شهداء أُحد ويأمر بزيارتهم، ثم قال: «**مَنْ زَارَنِي وَلَمْ يَزُرْ عَمِّي حَمْزَةَ فَقَدْ جَفَانِي**»[1].

وكانت مولاتنا فاطمة الزهراء عليها السلام تزور حمزة في كل يوم اثنين.

ولكن لم نجد على قبره مرقدًا وضريحًا شأن مثاوي العظماء في تلك الديار، وعملًا بالعصبية الرعناء في تحريم البناء على القبور.

وزرنا هنالك من بعيد جبل أُحد، حيث وقعت على سفحه الغزوة المعروفة.

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٠، ص١٩٨.



إلى المساجد المباركة

ثم وبعد ذلك زرنا مسجد ذي القبلتين الذي صلّى فيه المسلمون إلى بيت المقدس مدة من الزمان، ثم ولّوا وجوههم شطر المسجد الحرام -حيث أُمروا بذلك- فصلّوا فيه إلى الكعبة المشرفة.

وبعده مسجد الفتح الذي صلّى النبي فيه بعد غزوة الأحزاب، وكانت المساجد هناك كثيرة كمسجد سلمان الفارسي رضي الله عنه ومسجد علي بن أبي طالب عليه السلام ومسجد فاطمة الزهراء عليها السلام وكان المستحب في كل واحد منها صلاة تحيّة المسجد.

قلت وقال

وفي مسجد سلمان الفارسي رضي الله عنه صلّينا صلاة العشاء، فلما وقفت أمام ربّي جاعلاً لقسم من التراب لمسجدي، جاء أحد الوهابيين وأخذ التراب ووقف على ناحية وجعل يضحك، وكلما أشرت عليه في الصلاة لعلّه يرجعه لكي أتمم صلاتي صحيحًا، لأن سطح المسجد كان مفروشاً بما لا يجوز السجود عليه، فلم تنفعه الإشارة والإيماء، وبقي يضحك في

إصرار عنيد. حتى جاء أحد أصدقائي ووضع أمامي ما يجوز عليه السجود وأتممت صلاتي، فذهبت إليه آخذًا بيده قائلًا له: لماذا أخذت تربتي؟ ومن جوّز لك هذا؟.

فقال: لأنها حجر وأنت تسجد له، فإذن أصبح مُحرَّمًا ووجب عليَّ أخذه.

فقلت له: أوّلًا من قال لك أنها حجر؟ بل هي تراب، فهذا الماء اجعل عليه منه قطرة فانظر ماذا ترى؟. وثانيًا كيف أصبح السجود على التراب شركًا والأنبياء عليهم السلام قد سجدوا عليه كما سجدت من بعدهم جباه المؤمنين؟!. وهو جائز لدى جميع الفرق الإسلامية بإجماع.

قال الوهابي: أليس هذا عبادة الرجس من الأوثان؟.

قلت له: كلاّ، إنّ السجود لغير الله، كالسجود للأحجار والأخشاب المنحوتة وغيرها كالسجود للمأكولات التي طالما سجد لها بعض العرب الجاهليين، هذا شرك مُخْرِج للساجد عن التوحيد، أما السجود على شيء لله فما المانع منه؟.

قال الوهابي: ألستم تسجدون للتراب؟.

قلت له: كلّا وألف كلّا.. إنّا نسجد على التراب لا للتراب، كما أنتم تسجدون على أي شيء آخر، هل تسجدون له، إذا سجدتم عليه؟.

قال الوهابي: صحيح، فلماذا لا تسجدون كما نسجد

نحن على أي شيء صار؟.

قلت له: لأنّ السجود على غير ذلك لا يجوز عند مذهب أهل البيت عليهم السلام الذي نتّبعه، وقد أمرنا الوحي أن نتّبعه في جميع الأمور.

كيف نتحد؟

قال الوهابي: يجب علينا أن نتّحد وهذا يفرّق بين المسلمين ولا يجوز العمل به.

قلت له: الاتحاد صحيح لا سيّما في هذا اليوم، لكن على أي شيء؟.

قال الوهابي: على كتاب الله، وسنّة نبيّه.

قلت له: الآن جئت بالحق، فنحن نتحد على ضوء السنّة المباركة وفي ظل القرآن الكريم، فنعتصم بحبل الله، ثم نتبع الرسول صلى الله عليه وآله ونسير على هداه في الطريق المستقيم، ولكن أتدري ما قال الرسول صلى الله عليه وآله في السجدة على التراب؟.

قال الوهابي: ما قال النبي فيها؟.

قلت له: إنه قال صلى الله عليه وآله: «**جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً**»[1]. إنّ النبي صلى الله عليه وآله أفصح العرب ولم يقل هجرًا، فهل أراد من قوله هذا أنه لم يجعل له السماء مسجدًا؟. وهل يتخيّل أحد ذلك حتى يحترز منه النبي؟ بل إنه صلى الله عليه وآله أومأ بكلامه أن مسجده هو الأرض، لا المأكول

(١) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص٢٤٠.

والملبوس والمعدن، وذلك تواضعًا للبارئ وخضوعًا بالغًا للخالق العلاّم.

قال الوهابي: ومهما يكن الأمر فأنتم عصبة تقوم بشق عصا المسلمين وتفريق وحدتهم التي حققها القرآن وأمر بها في آياته المباركة.

أسـئـلـة

قلت له: هيّا أطرح عليك عدداً من الأسئلة وأرجوك أن تجيبني في حدود العقل، وبوحي من الضمير الحي، لا في ظل العصبية الحمقاء وبأمر من الشيطان الرجيم.

قال الوهابي: تفضّل، اسأل مما تريد.

قلت له: هل أنت تعلم أن المسلمين جميعهم - من شيعتهم وسنّتهم - يتفقون على السجود فوق التراب الخالص؟.

قال الوهابي: نعم، إنه لكذلك.

قلت له: هل تعلم أن طائفة كبيرة من المسلمين التي ربما بلغت مائة مليون مسلم لا تجوّز السجود على المأكولات والملبوسات والمعادن؟.

قال الوهابي: بلى، أعلم بذلك.

قلت له: فالآن قل: هل سجود المسلمين كلّهم على التراب خير أم سجود بعضهم على التراب وبعض على غيره؟.

قال الوهابي: طبعًا الأول خير من الآخر، ولكن لماذا

لا تتبعون أنتم سائر المسلمين في أمر السجود فتجوّزون السجود على كل شيء؟.

قلت له: إننا نعلم أن السجود على المأكول والملبوس والمعدن غير جائز لدى الإسلام، ولذلك لا نفعل.

قال الوهابي: وكيف ذلك؟.

قلت له: لقد أمرنا الله تعالى بالرجوع إلى أهل العلم والمعرفة لمعرفة أحكام دينه، قائلاً: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. وحيث رجعنا إليهم، وجدناهم لا يجوّزون السجود على مأكول وملبوس ومعدن، مستنبطين ذلك من كتاب الله العزيز، وسنة رسول الله ﷺ.

جبهة على التراب وأخرى على زخرف الحياة

ولأنك إذا سجدتَ على زخرف من زخارف الحياة الدنيا وزبرجة من زبارجها المغرية الخادعة، فتصبح في نفسك رغبة وميل إليها فتزهو عندك، وتزيد بذلك بُعداً عن ربّك المنّان، مع أن الصلاة قد وضعت لترغّب النفس عن الدنيا وتذكّرها بيوم تشخص فيه الأبصار، لا أنها وجبت لترغّب إلى الناس الدنيا، وتسوقهم إلى زخارفها المغرية.

فاحكم بعقلك أيهما أحسن، هل الأحسن أن تجعل أمامك صفحة من التراب تسجد عليها وترغم أنفك بها،

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

أو تسجد على فاكهة شهيّة أو طعام لذيذ آخر، لتجعله أمامك وتنظر إليه حيناً بعد آخر، وقد تفكّر وأنت ترتّل الآيات والتسبيحات أو تتضرّع إلى الله في عريض الدعاء في لون الفاكهة، تلك التي تراها أمامك وطعمها الشهي ورائحتها العطرة، ثم في مقدار ثمنها أو كثرة منافعها وهكذا، إلى الأخير؟.

كذلك إذا سجدتَ على الملبوس فوضعتَ نصب عينيك قماشاً ذا لون بهيج وحجم لطيف، وملس حرير.. وهكذا إذا جعلت أمامك سبيكة من الذهب فسجدت عليها، أما تفكر في مقدارها، ومقدار ثمنها، وكيفية استخلاصها، وهكذا في سائر الأمور الأخرى؟.

وهاهنا استسلم الوهابي وسلمني التربة التي أخذها بين صلاتي معتذراً: إن الدولة قد أمرتني أن أفعل هذا ولست بفاعله من قبل نفسي.

فانتبهت إلى مدى نفوذ الاستعمار والجهل والتخلف في ديارنا المقدّسة ليفعلوا مثل هذا العمل بالحجاج، ثم ودّعته لنزور مسجد قبا، وهو المسجد الذي بُني على التقوى من أول يوم.

كما كان عند مسجد قبا مسجد فضيخ الذي رُدّت الشمس فيه لعليّ أمير المؤمنين عليه السلام.

ثم رجعنا إلى المدينة المنوّرة حامدين الربّ العزيز على ما عرّفنا من زيارة مساجدها المباركة.

إلى مكة المشرفة

ولما مضت أيام غادرنا المدينة المنوّرة، ولم تُملأ منها بعدُ قلوبنا ولا نفوسنا، بل كنّا مشتاقين للعودة إليها في أي زمان قريب.

غادرناها مُيمّمين وجهنا شطر مكّة المكرّمة وبيت الله الحرام الذي جعله مثابة للناس وأمنًا.

فحملتنا السيارة المكشوفة إلى مسجد الشجرة حيث أفضل المواقيت التي أحرم منها النبي ﷺ في حجّة الوداع دون سواها من المواقيت، وبذلك أصبح مفضّلاً، كما أحرم منه النبي ﷺ ليلة الإسراء (أي ليلة المعراج). فهيّا نسمع قصّة ذلك من الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام، حين سأله رجل عن سبب إحرام النبي ﷺ قائلاً: «لِأَيِّ عِلَّةٍ أَحْرَمَ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الشَّجَرَةِ وَلَمْ يُحْرِمْ مِنْ مَوْضِعٍ دُونَهُ؟».

قال عليه السلام: «لِأَنَّهُ لَمَّا أُسْرِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَصَارَ بِحِذَاءِ الشَّجَرَةِ (أي في الموضع الذي فيه مسجد الشجرة) وَكَانَتِ المَلَائِكَةُ تَأْتِي إِلَى البَيْتِ المَعْمُورِ بِحِذَاءِ المَوَاضِعِ الَّتِي هِيَ مَوَاقِيتُ سِوَى الشَّجَرَةِ، فَلَمَّا كَانَ فِي المَوْضِعِ الَّذِي

بِحِذَاءِ الشَّجَرَةِ نُودِيَ يَا مُحَمَّدُ قَالَ: لَبَّيْكَ.

قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَيْتُ، وَوَجَدْتُكَ ضَالّاً فَهَدَيْتُ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ.

فَلِذَلِكَ أَحْرَمَ مِنَ الشَّجَرَةِ دُونَ المَوَاضِعِ كُلِّهَا»[1].

وهكذا أحرم النبي ﷺ من هذا الميقات مع أن المواقيت ستة، وهي:

١- مسجد الشجرة: وهو ميقات أهل المدينة ويسمّى ذا الحليفة، ويبعد عن مكّة المشرفة ٤٦٤ كم، وعن المدينة المنوّرة بنحو ٧ كم.

٢- الجحفة: قرية كانت تسمى بـ(مهيعة) تحاذي اليوم قرية يابغ تقريبًا وهي قرية تستقر في طريق المدينة عن مكّة، وهي ميقات أهل الشام في كل حين، وأهل المدينة لضرورة قاهرة كمرض أو خوف يمنعهم عن ميقاتهم المعلوم، تبعد عن مكّة المكرّمة ٢٢٠ كم.

٣- قرن المنازل: (جبل مشرف على عرفات)، وهو ميقات أهل الطائف، يبعد عن مكّة المشرفة ٩٤ كم.

٤- وادي عقيق: (قرية معمورة تسمى بـ: ذات عرق، وهي قسم من الوادي)، وهو ميقات أهل العراق،

(١) بحار الأنوار: ج١٨، ص٣٧٠.

ويبعد عن مكّة المكرّمة نحو ٩٤ كم.

٥- يلملم: (جبل من جبال تهامه)، وهو ميقات أهل اليمن، يبعد عن مكّة المشرفة ٩٤ كم.

٦- منزل الحاج: حين يكون أقرب إلى مكّة المشرفة من الميقات.

وقد جعل النبي ﷺ هذه المواقيت لأهل الآفاق، في حين أن البلاد كان يسودها الكفر والإلحاد، لأنه كان عالمًا باتساع دعوته ومؤمنًا بأن الله ينصر من نصره، وموقنًا بأن وعد الله حق وأن ليس الله مخلف وعده رسله.

فأحرمنا من هناك (مسجد الشجرة) وأحرم كل عضو من جسمنا، شعرنا وبشرنا ومخّنا عن أربعة وعشرين شيئًا[1]، ولذلك فعلنا أربعة أشياء:

١- وطّنّا أنفسنا على ترك هذه الأشياء، وعزمنا على ترويض النفس وكبح جماحها في سبيل أمر خالقها العلّام.

٢- نوينا ذلك لعمرة التمتّع إلى حجّة الإسلام كما تلفّظنا به لأجل الاستحباب.

٣- لبسنا ثوبي الإحرام، الذين يجب لبسهما على الرجال ماداموا محرمين، وهما إزار يأتزره الحاج على محزمه ليستر ما بين السرة والركبة، ورداء يجعله على منكبيه ليحتوي على سائر الجسم سوى الرأس.

---

(١) تم ذكر مفرداتها بالتفصيل تحت عنوان (ولما أحرمنا) في ص (٨٢).

والحق أن لبس هذين الثوبين البسيطين يزيد الإنسان تواضعًا وانكسارًا، كما يجعل على مئات الألوف من الملبّين زيًّا واحدًا وهيئة واحدة، لكي يصبحوا سواسية كأسنان المشط، كما وصف النبي ﷺ المسلمين بذلك، ولكيلا تميّزهم الميزات الدنيوية، ولا العناوين المادّية الزائفة.

فانظر الآن -أيها القارئ الحبيب- إن جماعة كثيرة أحرموا -حينما أحرمنا- وكان كل منهم يتزين بهيئة متميزة عن الآخر. فمثلاً، إني كنت معمّماً، ألفّ على رأسي من القماش، قدرًا مقدورًا، وألبس معها صاية رزينة أو جبّة فضفاضة، كما كنت أرتدي رداءً أسود. والآخر: مُكشَّد[1]، أي يلبس قلنسوة طويلة دائرية الشكل، حمراء اللون، قانية، يلف على وسطها قماشًا أخضر حينًا، وشالًا منبتًا برشًا أحيانًا، ويرتدي الرداء. والثالث يضع على رأسه (العقال) فوق كوفيّة بيضاء منبتة بالأسود غالبًا تستر الرأس كلّه والعنق والأذنين، وشيئًا من عظم اللحية. والرابع يكشف رأسه.

ولكن الكل يصبحون بهيئة واحدة حينما يلبّون الحق، فليس يسترهم سوى إزار ورداء في بساطة ومساواة، وقد حسرت رؤوسهم واغبرّت وجوههم، لا يشتغلون بالألبسة عن خالقهم ولا بالتزين عن أحكامه الصائبة.

٤- وبعد كل هذه الثلاثة، لبّينا داعي الحق بقلوب

(١) مشتق من الكشيدة، وهي اسم قلنسوة تُنسب إلى الشام، كما يُنسب العقال إلى الكوفة.

مرتجفة، وأبصار خاشعة، وجوارح خاضعة للواحد العلاّم، مرددين أنشودة الحاج المُخبت: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ».

وبهذه العبارات الرقراقة الخاشعة أجبنا ربّنا إذ دعانا إلى زيارة بيته ووعدنا الضيافة على لسان الوحي المجلجل في الأقطار، مبتدئًا من بطاح الحجاز وهضابه ليملأ الدنيا بعد ذلك.

فقد جاء في الحديث عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر عليه السلام): «إِنَّ اللهَ لَمَّا أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام يُنَادِي فِي النَّاسِ الحَجَّ قَامَ عَلَى المَقَامِ فَارْتَفَعَ بِهِ حَتَّى صَارَ بِإِزَاءِ أَبِي قُبَيْسٍ (اسم جبل شاهق في مكّة المكرّمة)، فَنَادَى فِي النَّاسِ بِالحَجِّ فَأَسْمَعَ مَنْ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ»[1].

ومن بعده القرآن الكريم حين انطلق من فم صاحب الرسالة مجلجلًا هادرًا: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾[2].

---

(١) وسائل الشيعة: ج ١١، ص ١٤.

(٢) سورة الحج: آية: ٢٧/ ٢٨. (رجالًا أي: مشاة غير راكبين، جمع راجل وهو خلاف الراكب. وضامر: الفرس الذي لصق بطنه بظهره وهزل، وهو صفة محمودة في الفرس، وقد كُني بذلك عن كثرة المشي والتعب المجهد).

ولمّا أحرمنا

وحينما تممنا أعمال الإحرام الأربعة فُرِض علينا المنع عن اقتراف أربعة وعشرين شيئًا من زخارف الدنيا ومتعها، لنتشبّه بالملائكة عباد الله المكرّمين الطائفين بالبيت المعمور، ولكيلا نشتغل بها عن العبادة وإتمام النسك على التمام.

وهي: الصيد وكافة أشكال المعاونة عليه، لكن يختص بالحيوان البرّي وصيد الحيوان البحري جائز. الجماع وكافة أنواع مباشرة المرأة بشهوة. الاستمناء (أي طلب المني). العقد (أي عقد النكاح). استعمال الطيب. لبس المخيط (يختص بالرجال فقط وهو للنساء جائز). الاكتحال بسواد (أو للزينة على الأحوط). النظر في المرآة، لبس الخف (وكل حذاء يستر ظهر الرِّجل). الجوارب، الكذب، السباب، المفاخرة، الجدال (وذلك بأن يقول: لا والله، أو يقول: بلى والله). قتل هوامّ الجسد. التختّم للزينة، لبس المرأة الحلي للزينة. الإدهان، إزالة الشعر. ستر الرجل رأسه والمرأة وجهها، التظليل للرجل، إخراج الدم، تقليم الظفر، قطع شجر الحرم وحشيشه، لبس السلاح. وأخيراً كبح النفس عن كل شهوة تميل إليها النفس، أو رغبة يطلبها الإنسان من أمتعة الحياة الدنيا، في مأكل وملبس، ومقال وشهوة جنسية. وما منعنا عن هذه المحرمات أية سلطة دولية، أو قوانين بشرية كما لم يجعلنا

نتركها خوفٌ من قوة قاهر أو سطوة حاكم.

وإنما عمل بنا كل ذلك الإيمان والإخلاص، حبستنا الرياضة النفسية التي لن تُنال الدرجات الأخروية العالية إلّا بها.

في السيارة المكشوفة

وبعد ذلك استقلتنا السيارة المكشوفة مُيمّمة شطر مكّة المكرّمة، فأصبحت تطوي الصحراء، وتنهب الأرض نهبًا، وأمسينا نكرر التلبية في أي حين وطئنا واديًا، أو ضربنا في عنق هضبة، عملاً بالمندوب، واقتداء بعمل الرسول ﷺ فنردد كلمات التلبية بكل توجّه وخشوع: **«لَبَّيْكَ ذَا المَعَارِجِ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ دَاعِيًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ غَفَّارَ الذُّنُوبِ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ أَهْلَ التَّلْبِيَةِ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ ذَا الجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ مَرْهُوباً وَمَرْغُوباً إِلَيْكَ لَبَّيْكَ...»**.

وحينما مالت الشمس إلى الغروب، وأمست جيوش الظلام تتغلّب على سلطان النهار، وكنّا لا نزال على متن السيارة، كان هناك المنظر بهيجًا للغاية، كما كان يبعث الخشوع والخضوع في النفوس المؤمنة، فكنت ترى الطريق الطويل، قد ملأته السيارات القاصدة مكّة المكرّمة تحمل آلافًا من الحجاج الملبّين، فهي سلسلة متتابعة كانت تبدو -في ذلك الليل البهيم- أنوار متلألئة وهّاجة أضاءت الصحراء القاحلة الجرداء، وجميعها تُقِلُّ الوافدين الذين

أحرمـوا عن اللـذات والمتع ومباهج الحيـاة، حتى ليتذكّر الإنسان ركبان مكّة الأولى.



دخلنا المسجد الحرام آمنين

ثم.. بعدما قضينا الليلة بالسير دخلنا مكّة المكرّمة في سرور عميق، وفرح مفرط، وكان المندوب -حين ذلك- أن نغتسل لدخول الحرم، ثم ندخل مكّة من أعلاها بسكينة ووقار، حُفاة الأقدام، آخذين الحذاء بالأيدي، إيغالاً في الإخبات للواحد القهار، والرضوخ لأحكامه المفترضة.

ولكن ويا للأسف حينما كنّا ساهرين الليل بالسير، وقد لقينا من سفرنا نصبًا كبيرًا، لم نعمل بأي واحد منها عند الدخول.

كما كان المندوب في دخول مكّة -على قول بعض الفقهاء- أن نغتسل ثانيًا ولدخول المسجد غسلاً آخر فندخله من باب بني شيبة الذي أصبح اليوم داخلاً في المسجد لتوسّعه، لكن جعلت على موضعه علامة ثابتة حتى اليوم فيصبح باب الكعبة قبلة للوارد حين الدخول.

أما نحن فصلّينا الفجر وقصدنا المسجد لأداء نسك العمرة وهي الطواف، وصلاة الطواف، والسعي، والتقصير.

بيت الله العتيق

قصدنا الكعبة والمسجد.. لأوّل مرة في حياتنا، وقد كنّا نتولّه إلى الكعبة ونشتاق لرؤيتها، فهي الكعبة التي نولّي إليها الوجوه في صلواتنا، وأدعيتنا، ويحتضر نحوها أمواتنا وندفنهم على الخدود وقد وُجِّهت إليها، كما نستقبل بذبائحنا نحوها.. الكعبة المقدّسة التي سمعنا عنها الكثير الكثير، الآن نريد أن نراها، فكنّا حين الدخول إلى المسجد في مزيج من الشوق والتطلّع والفرح والسرور. فدخلناه، فإذا به في ترميم وبناء جديد، قد أعاد بناءه ابن سعود فأصبح أكبر مما كان عليه بكثير.

وفي وسط هذا المسجد الكبير تتلألأ الكعبة المشرفة التي شيّدها إبراهيم الخليل وإسماعيل نجله الكريم عليهما السلام.

وفي أحد جوانبها حجر إسماعيل عليه السلام، حيث دُفن مع كثير من الأنبياء عليهم السلام، وذلك ما بين الكعبة وحائط دائري يشكّل ثلث الدائرة تقريبًا يبعد وسطه عن الكعبة نحو عشرين ذراعًا.

والمطاف حول الكعبة المشرفة وحائط الحجر، إلى نحو ٢٦ ذراعًا، يدخل فيه حجر إسماعيل كما يخرج عنه المقام، فإذا طاف الحاج من داخل الحائط ليصبح بينهما كان طوافه باطلاً.. كذلك لو طاف خلف المقام ليصبح المقام داخلاً في المطاف فيلزم إعادة ذلك الشوط أو كله -على بعض الأقوال-.

وهناك زاوية تقرب من باب الكعبة يستقر فيها الحجر الأسود يلزم على الطائف أن يبتدئ به عند طوافه.. وينتهي بآخر جزء منه.

الحجر الأسود

والحجر الأسود هو الصخرة التي نزلت من السماء، وهي ياقوتة بيضاء تبهر العين، ونورها يملأ ما بين الخافقين -كما في الحديث الشريف- وكان في أصله مَلَك كريم انقلب إلى حجر في قصّة هي:

كان قبل هذا العالم -عالم التناسل- عالم آخر قد طويناه ثم ذهب لننساه، ولم نذكر منه شيئًا، وقد أخذ الله من كل فرد يولد -حتى يوم الحشر- ميثاقًا غليظًا ليعترفوا بالواحد الصمد العزيز، وبرسله وأوليائه. وفي ذلك يقول سبحانه في قرآنه المجيد: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[1].

فلما أن تمّ العهد وأُخِذَ من بني آدم الميثاق الغليظ كُتِبَت العهود والمواثيق وخزنها ملك كريم، وانقلب إلى حَجَر ونزل من السماء فبُني في ركن من أركان الكعبة المشرفة.

ولذلك أصبح من المندوب أن يستلم الطائف

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٢.

الحجر بيده ويقبله في أول شوط وآخر شوط من طوافه، إذا لم يكن مزاحمًا لحق غيره. بل يستحب الاستلام والتقبيل في كل شوط من الطواف إذا وجد إلى ذلك سبيلاً، وإلّا فيشير إليه بيده قائلاً: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لَا أَنْ هَدَانَا اللهُ، سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ...**».

الحطيم والأركان والمستجار

ثم يستحب أن يقف عند الحطيم -وهو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود ويستغفر الله ربّه- وفيه يزدحم الجم الغفير من الناس ويحطم بعضهم ببعض وتحطم فيه الذنوب، وقد حطمت المعاصي عنده لأبينا آدم عليه السلام فغُفر له. وهو أشرف بقاع الأرض. ويأتي بعده الحجر في الفضل والشرف ثم المقام. ومن المندوب -أيضًا- استلام الأركان الأخرى وهي:

١- **الركن العراقي**: وهو الركن الذي بعد الحجر مباشرة بالنسبة إلى الطائف، متصل في شرقي الحِجْر.

٢- **الركن الشامي**: وهو الركن الذي بعد العراقي مباشرة، متصل في غربي حجر إسماعيل عليه السلام.

٣- **الركن اليماني**: وهو الركن الذي يستقر بعد الشامي مباشرة، ولديه المستجار.

وعند الركن اليماني يكون المستجار حيث لاذت فاطمة بنت أسد والدة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام

بالكعبة عندما أجاءها المخاض إليها فانشقّت الكعبة من جانب المستجار، فدخلت وأنجبت عليًا عليه السلام وعادت بعد أيام ثلاثة وبيدها الوصي يتلألأ نورًا وبهاء.

فيستحب استلام المستجار، وعد الذنوب عنده، والإقرار بها، والاعتراف بالعبوديّة لديه، وإلصاق البدن كاللائذ العائذ والمضطر المستجير.

الطواف بالبيت العتيق

فطفنا بالبيت العتيق الذي جعله الله مثابة للناس وأمنًا، إذعانًا لله بالعبودية وإخباتًا له بالطاعة، سبعة أشواط ابتداءً من الحجر الأسود، وانتهاء إليه. وقد جعله تبارك وتعالى اختبارًا لعباده، وامتحانًا لهم؛ أيهم المؤمن الراضخ لحكمه، وأيهم الملحد المتكبّر عن إطاعته، كما يقول الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام حيث يذكر فلسفة الطواف في منطقه العذب وبيانه الساحر، فيقول: «**أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ اخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ بِأَحْجَارٍ مَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا... إِلَى أَنْ قَالَ: ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ وَوُلْدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ... ثُمَّ قَالَ: حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلًا للهِ حَوْلَهُ، وَيَرْمُلُوا عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْثًا غُبْرًا لَهُ، قَدْ نَبَذُوا الْقُنُعَ وَالسَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ،**

وَحَسَرُوا بِالشُّعُورِ حَلْقاً عَنْ رُؤُوسِهِمْ»(1).

وهكـذا يمتحن الله عباده فيأمرهـم بتعظيم قطع من الحجر، ويحثّهم على تعظيمها وزيارتها والطواف لله حولها، ويجعلها مأوى أنبيائه، وقبلةً للمصلّين.

ولكن حينما نتعمّق في أغوار التاريخ السحيقة الغابرة لنبصر متى وكيف وجب الطواف؟ يُعجزنا العلم إلّا من باب واحد فحسب، ذلك باب معارف النبي صلى الله عليه وآله وذرّيته عليهم السلام، فنسمع إليهم ليقولوا: «عِلَّةُ الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فَرَدُّوا عَلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذَا الْجَوَابَ، فَعَلِمُوا أَنَّهُمْ أَذْنَبُوا فَنَدِمُوا فَلَاذُوا بِالْعَرْشِ وَاسْتَغْفَرُوا، فَأَحَبَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَتَعَبَّدَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْعِبَادُ [يَتَعَبَّدَ الْعِبَادُ]، فَوَضَعَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ بَيْتاً بِحِذَاءِ الْعَرْشِ يُسَمَّى الضُّرَاحَ، ثُمَّ وَضَعَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا بَيْتاً يُسَمَّى الْمَعْمُورَ بِحِذَاءِ الضُّرَاحِ، ثُمَّ وَضَعَ الْبَيْتَ (أي الكعبة المشرفة) بِحِذَاءِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عليه السلام فَطَافَ بِهِ فَتَابَ اللهُ عَلَيْهِ وَجَرَى ذَلِكَ فِي وُلْدِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(2).

مقام النبي إبراهيم عليه السلام

ثـم بعد الطواف بالبيت قصدنـا مقام النبي إبراهيم عليه السلام لنصلّي ركعتي الطـواف الواجبتين خلفـه. فرأيناه

---

(1) وسائل الشيعة: ج١١، ص١١.

(2) بحار الأنوار: ج١١، ص١١٠.

بناية تبعد عن الكعبة بنحو ٤٦ ذراعًا، ينقسم إلى قسمين:

- قسم تستقر فيه صخرة المقام، وهو زهاء مترين طولًا وارتفاعًا ومتر ونصف المتر عرضًا، وأطرافه مشبّكة بشبكات صغيرة، يُرى خارجه من داخله وداخله من خارجه، وفي داخل الشبكات حجر مرتفع يبلغ طوله وارتفاعه مقدار متر تقريبًا وعرضه زهاء نصف المتر، وقد حُجب بالستار، بحيث ما رأينا منه شيئًا.

- والقسم الآخر، خلف المقام يتميّز برخام مرتفع (خمسة سنتيمترات تقريبًا) من جوانبها الثلاثة، وأمامه المقام، وقد سقف بسقف يرتفع زهاء مترين كما أن طوله وعرضه نحو مترين فقط، وفيه ازدحام كثير، وقد وُكّل عليه حارسان يضربان الناس بخرقة مفتولة، رغم أنه كُتب على مقدم البناية مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا!!.

وصخرة المقام قد نزلت من السماء، وهي ياقوتة زاهرة قد وقف عليها النبي إبراهيم عليه السلام فطبع عليها أثر رجليه المباركتين.

وروي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، أنه قال: «كَانَ مَوْضِعُ المَقَامِ الَّذِي وَضَعَهُ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام عِنْدَ جِدَارِ الْبَيْتِ، فَلَمْ يَزَلْ هُنَاكَ حَتَّى حَوَّلَهُ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ إِلَى المَكَانِ الَّذِي هُوَ فِيهِ الْيَوْمَ.

فَلَمَّا فَتَحَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله مَكَّةَ رَدَّهُ إِلَى المَوْضِعِ الَّذِي وَضَعَهُ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام، فَلَمْ يَزَلْ هُنَاكَ إِلَى أَنْ وَلِيَ عُمَرُ

ابْنُ الخَطَّاب فَسَأَلَ النَّاسَ مَنْ مِنْكُمْ يَعْرِفُ المَكَانَ الَّذِي كَانَ فِيهِ المَقَامُ؟. فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا قَدْ كُنْتُ أَخَذْتُ مِقْدَارَهُ بِنِسْعٍ[1] فَهُوَ عِنْدِي.

فَقَالَ: ائْتِنِي بِهِ. فَأَتَاهُ بِهِ فَقَاسَهُ ثُمَّ رَدَّهُ إِلَى ذَلِكَ المَكَانِ»[2].

ماء زمزم

ثم قصدنا بئر زمزم، حيث فَحَصَ إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام برجليه وهو غلام صغير، فنبع من تحتها الماء ظاهرًا يجري على وجه الأرض، حينما خلفه إبراهيم عليه السلام ومعه أمه هاجر، وتولى عنهما قائلاً: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[3].

فلمّا غادرهما إبراهيم عليه السلام: «عَطِشَ إِسْمَاعِيلُ فَبَكَى فَخَرَجَتْ -أمه هاجر- عليها السلام حَتَّى عَلَتْ عَلَى الصَّفَا وَبِالْوَادِي أَشْجَارٌ (ولم تكن هناك أشجار مثمرة وإنما كانت بريّة صلبة كالسلم والسمر) فَنَادَتْ هَلْ بِالْوَادِي مِنْ أَنِيسٍ؟.

(١) النِّسع -بالكسر-: قال الفيروزآبادي: «سير ينسج عريضاً على هيئة أعنة النعال، تشد به الرحال، والقطعة منه نسعة، وسمي نسعاً لطوله».

(٢) الفروع من الكافي، ج٤، ص٢٢٣.

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٣٧.

فَلَمْ يُجِبْهَا أَحَدٌ فَانْحَدَرَتْ حَتَّى عَلَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ فَنَادَتْ هَلْ بِالْوَادِي مِنْ أَنِيسٍ؟.

فَلَمْ تَزَلْ تَفْعَلُ ذَلِكَ حَتَّى فَعَلَتْهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا كَانَتِ السَّابِعَةُ هَبَطَ عَلَيْهَا جَبْرَئِيلُ عليه السلام فَقَالَ لَهَا: أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ مَنْ أَنْتِ؟.

فَقَالَتْ: أَنَا هَاجَرُ أُمُّ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام.

قَالَ عليه السلام لَهَا: وَإِلَى مَنْ خَلَّفَكِ؟.

قَالَتْ: أَمَا إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ لَقَدْ قُلْتُ لَهُ: يَا إِبْرَاهِيمُ! إِلَى مَنْ تُخَلِّفُنِي هَاهُنَا؟ فَقَالَ: إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أُخَلِّفُكِ.

فَقَالَ لَهَا جَبْرَئِيلُ عليه السلام: نِعْمَ مَا خَلَّفَكِ إِلَيْهِ، لَقَدْ وَكَلَكُمْ إِلَى كَافٍ؛ فَارْجِعِي إِلَى وَلَدِكِ.

فَرَجَعَتْ إِلَى الْبَيْتِ (الصفا) وَقَدْ نَبَعَتْ زَمْزَمُ وَالْمَاءُ ظَاهِرٌ يَجْرِي فَجَمَعَتْ حَوْلَهُ التُّرَابَ فَحَبَسَتْهُ.

قَالَ أَبُو عَبْدِالله عليه السلام: لَوْ تَرَكَتْهُ لَكَانَ سَيْحاً»[1].

ويمكن أن يكون هذا هو العلّة لوجوب السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط.

ثم كان من المندوب أن نغتسل بماء زمزم من الدلو المقابل للحَجَر الأسود، ولكن الازدحام منعنا عن ذلك، بيد أنّا عملنا بالمندوب الآخر وهو الشرب من مائه بعد بذل قرش سعودي لأحد السقّائين. إذ في الحديث المأثور:

(١) بحار الأنوار: ج١٢، ص١١٣.

«مَاءُ زَمْزَمَ شِفَاءٌ لِمَا شُرِبَ لَهُ»[1]. فكان من المستحب طلب الحوائج المهمة لدى الشرب قائلاً: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ عِلْماً نَافِعاً وَرِزْقاً وَاسِعاً وَشِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ وَسُقْمٍ»[2].

الصفا والمروة

ثم وبعد طواف العمرة وصلاته، ذهبنا نحو المسعى في شرقي المسجد لنأتي بالواجب الرابع للعمرة، وهو السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط.

فابتدأنا بالصفا وهو الجبل الواقع في جنوبي شرق المسجد، وقد محُيت آثار الجبل إلاّ قمّته فإنّها باقية حتى الآن، فوقفنا عليه متوجّهين نحو الحجر الأسود في تكبير وتهليل قائلين: «اللهُ أَكْبَرُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَالحَمْدُ للهِ عَلَى مَا أَوْلاَنَا، وَالحَمْدُ للَّهِ الحَيِّ القَيُّومِ، وَالحَمْدُ للَّهِ الحَيِّ الدَّائِمِ»[3]. كما هو المندوب.

وكان المندوب أيضاً أن نهرول -أي نمشي هرولة كهرولة البعير- ما بين المنارة وزقاق العطّارين -على حد تعبير المتقدّمين- ولكن ما بقي من المنارة والزقاق المذكورين عين ولا أثر، سوى رخامين أخضرين منبتي اللون يستقرّان في المسعى على اليمين والشمال، مرتفعين عن الأرض بنحو عشرة أمتار، وبعد سبعين متراً تقريباً

(١) وسائل الشيعة: ج١٣، ص٢٤٥.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٣، ص٢٤٧.
(٣) الفروع من الكافي: ج٤، ص٤٣١.

يوجد أيضًا رخامان أخضران مثل الأوّلين.

قطعنا في سعينا هذا المسافة التي قطعها الأنبياء والأولياء والصلحاء من لدن آدم عليه السلام الذي أنزله الله تبارك وتعالى على الصفا، كما هبط بحوّاء على المروة. ولذلك سُمّي الصفا، باسم آدم المصطفى، حيث قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[1]، كما سمّيت المروة باسم المرأة التي هي حوّاء، زوجة آدم.

وكان آدم يأتي إليها كل يوم يتحدّث معها على المروة، لأنها كانت الأنيسة الوحيدة له، فلما يمسي المساء ويسدل الظلام سداله ينصرف عنها ليبيت على الصفا بعيدًا عنها.

وهكذا قطعنا هذه المسافة اقتداءً بأبينا آدم عليه السلام والأنبياء والأولياء من بعده الذين سعوا واحداً بعد الآخر، حتى قُدِّر أن نكون نحن الملبّين من بعدهم وارثين للمطاف والمسعى بعد انتهاء أشواط حياتهم، لنسعى مع مئات الألوف الملبّية داعي الحق في خشوع، وتواضع، وإيمان.

وبعدما قطعنا هذه المسافة، وصلنا المروة، الجبل الثاني، وأمامنا رؤوس متراصة كما تدفعنا جماهير متدفّقة وكلهم يؤدون شعيرة من شعائر الله، وشعاراً من شعارات

(١) سورة آل عمران، آية: ٣٣.

الدين الحنيف، في إخلاص عميق، وقلب مفعم بالآمال الكبيرة من الربّ الودود.

وليتك كنت وترى هنالك المنظر الجميل المهيب، والمشهد الرائع الخاشع؛ فالعربي والأعجمي، والأبيض والأسود، والعبد والسيّد، والعالم والجاهل.. أتوا ليحيوا ذكرى هاجر التي أسكنها إبراهيم عليه السلام بأمر من البارئ بوادٍ غير ذي زرع عند بيت الله المحرّم، لتقيم حدود الله وأحكامه.

فهي التي جاهدت في سبيل الله، وغامرت أيّة مغامرة، فوجب على الملايين أن تواصل أشواطها عرض التاريخ، لأنها ذكرى الإيمان، وذكرى بطلة الإيمان المجاهدة.

أضف إلى ذلك، أنّ الملبّين بين الصفا والمروة كانوا يمثّلون الجيش العرمرم العظيم، وهو في استعراض عام أمام القائد المهيمن.

أليس ذلك مما يُظهر العظمة والشموخ للقائد، ويكشف عن هيبة الجيش وسلطانه، ويزيده صمودًا ورسوخًا، ويمدّه بقوّة وراءها قوّة، ويبعث فيه روحًا وثابةً، وعزمًا حاسمًا يجعلهم يسعون في أوامر القائد بانتظام متين، وإخلاص صادق؟.

ثم إن السعي فيه ذلّة للجبابرة، وصغار للطواغيت، فهم -كأي رجل آخر- يقطعون المسافة البعيدة -التي

ربما بلغت ٢٨٠٠ متر- رغم أنوفهم التي ملأها الكبر والخيلاء، ليخفف من جبروتهم الطاغي، ويصبحون ذللاً أمام الله الواحد القهّار.

التقصير

ثم ولمّا أكملنا الشوط السابع وكنّا على المروة، إذ كان من الصفا إلى المروة شوط وإليه شوطان، أخذنا شيئًا من شعر رأسنا ناوين بذلك التقصير عن إحرام عمرة التمتّع لحجّة الإسلام.

فَحَلَّ لنا بذلك كل ما حَرَّم إحرام العمرة علينا، مما سبق ذكره، وكان الوقت حينما قصّرنا عن إحرام العمرة قريبًا من الزوال، مع أنّا أحرمنا لها في يومه الماضي -بمسجد الشجرة- قبيل المغرب، فلم يطل إحرامنا لعمرة التمتّع إلا زهاء عشرين ساعة فحسب.

فتمّت العمرة بإكمال واجباتها الخمس وهي:

١- الإحرام من أحد المواقيت.

٢- الطواف حول الكعبة المشرفة سبعة أشواط.

٣- ركعتا الطواف خلف مقام إبراهيم عليه السلام.

٤- السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط.

٥- التقصير بأخذ شيء من شعر الرأس أو تقليم ظفر.



اتصالات واجتماعات

ولم يكن لنا بعد إكمال أعمال العمرة إلاّ أن ننتظر يوم التروية، ثامن ذي الحجة الحرام لنحرم ثانية للحج.. (سمّي يوم الثامن من ذي الحجة بيوم التروية لقول جبرائيل عليه السلام في ذلك اليوم للنبي إبراهيم عليه السلام -وهما بمكّة-: «ترَوَّ مِنَ المَاء»[1] استعداداً للسفر إلى عرفات، أو لقول الحاج بعضهم لبعض هل تروّيتم؟).

وكنّا نغدو ونروح في تلك الفترة المتخللة بين العمرة والحج على المسجد الحرام، ونلتذّ بمشهد الكعبة المشرفة، ومشهد الطائفين حولها والمقيمين الصلاة شطرها..

كما كنّا نتعارف مع الحجاج الذين أتوا من كل فجٍّ عميق، من سائر أقطار العالم الإسلامي الواسع. فالإنسان يتصل بالهندي، وعنده الأفريقي، ولديها الفارسي، ويصحبهم العربي، جَمَعَهم الإسلام في نقطة متوسطة من العالم الإسلامي تقريبًا عند البيت المحرّم وفي جوار الكعبة المقدّسة.

فكنت أسألهم عن أوضاعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعن التقاليد السائدة على مجالات حياتهم،

(١) وسائل الشيعة: ج١١، ص٢٣٠.

وعن المشاكل المعقّدة التي يعانون مأساتها، كما كانوا هم يسألونني عن مثل ذلك.

ولطالما توسّعت آفاقي، فكنت أتنفّس في ميادين أخرى من الحياة لم أكن أحلم بها في أوساط بلادي. فالإنسان يعيش في جو فتستولي عليه أفكار بيئته، وآمال مجتمعه، وتبقى أفكاره منطبقة عليها آثار حياته الضيّقة، فينحسر العالم عنده في قطره فحسب، ولكن إذا اتصل بمختلف الأفراد الوافدين من مختلف البلاد، توسّعت آفاقه كما تتغير الأفكار، فيفكّر أن معه رجالاً آخرين، ومثل قُطره أقطار أخرى يلزم أن تعيش في هذه الحياة كما يعيش هو، ومثل ذلك نحن الذين كنّا في العراق فلا نتّصل إلاّ بالعراقي والإيراني والهندي وما إليهم من أهالي البلاد الشيعية، لكن الآن قد أصبحنا وقد نستطيع أن نتّصل بأفراد أتوا من ٩١ دولة إسلامية وغير إسلامية.

فكنّا -كما ذُكر- نجلس معهم ونلتذّ بهذا الاجتماع النادر، في حين لم نكن نأمل أن يرى بعضنا بعضًا طول الحياة أبدًا، لا سيّما مع هذا الضغط الموجود على المسافرين.

وكنّا في تلك المؤتمرات الإسلامية الصغيرة والعظيمة في الوقت نفسه، نتباحث في أوضاع البلاد الإسلامية المباركة، وما سادها من الجو الرهيب، والتوتر المقيت، وعن علاج الويلات والمآسي التي حلّت بها منذ سقوط الدولة الإسلامية حتى اليوم فلعبت بالمسلمين ومقدّساتهم وأبادت واضطهدت الآلاف منهم.

فَطَوْرًا، تفكّر في الطاغوت الساري من الشرق

الاشتراكي نحو بلادنا الحبيبة، المتمثل في الحزب الشيوعي، الذي استتر بستار مكافحة الفقر، ومعاونة العامل، ونصرة الفلاح، وهم بنظامهم الاشتراكي والشيوعي صاعقة على الفقراء، وبلاء للعمال، ونكبة على الفلاحين.

علمًا أن هؤلاء فئة لم يعرفوا أي دين، كما لم يخضعوا لأي مقدّس، ولم يتسننوا بأي خُلُق إنساني في الحياة.

فإذا عرفوا نفعًا ماديًا متوجهًا إليهم أو إلى مستعمريهم، فسلامهم يصبح حربًا، ودينهم يكون دنيا، ومقدّسهم بلاد المستعمرين، وتصبح أخلاقهم وحشية حمراء.

وطورًا، نفكّر في اليهود، هذه الشرذمة القليلة، التي خلّفت الأسى والحزن العميقين في قلوب المسلمين حينما غصبت جزءًا مهمًّا من أراضينا المباركة.

وطوراً ثالثًا: في التمدّن المستورد إلى الشرق المسلم من الغرب الكافر، والأفكار والتقاليد التي جاؤوا بها إلينا، وفي مقدار مسايرتنا لها في ظل التمسّك بالدين الحنيف، وأنه هل الواجب علينا أن نأخذ الإسلام ونهتدي بأنواره المشرقة، أو نتمسّك بالتمدّن ونقلّد الغرب في أفكاره وأفعاله؟.

ورابعاً: في التبشير المسيحي الذي ملأ أرجاء البلاد وأفسد الجمّ الغفير..

فنضع لذلك الحلول، وندبّر له الخطط، ونستعين بالبارئ القادر في العمل الجدّي وفق المخطط المدبّر المعلوم.



إحرام الحج

وبعدما انقضت عن عمرة التمتّع أيام قلائل واقترب يوم عرفة، حيث يجب الإحرام فيه للحج كإحرام العمرة في كل شيء سوى أنه في مكّة المكرّمة، وإحرام العمرة من أحد المواقيت. كان المندوب أن يحرم الإنسان للحج يوم التروية ثامن ذي الحجة الحرام في المسجد الحرام، وبالذات داخل حجر إسماعيل عليه السلام تحت ميزاب الكعبة -وهو ميزاب وُضِع في الجانب الشمالي للكعبة المباركة- على حجر إسماعيل مصنوع من الذهب الخالص يسيل منه المطر الواقع على سطح الكعبة.

وكذلك أحرمنا إحرام حجة الإسلام المفترضة، متقرّبين إلى الله العزيز بترويض النفس عن الملذّات الدنيوية الزائفة، التي طالما غرّتنا بعرض الحياة فأنستنا ذكر ربّنا الكريم.

وبذلك الإحرام مُنِعنا عن الملاذ الجسمية لنمتلئ بالمعاني الروحية، ونصبح سائرين بذلك نحو الفضائل والمكرمات، وتنمو في نفوسنا الملكات الفاضلة، المُحفّزة للإنسان نحو الخير والمعروف، فتطهّر قلوبنا من كل رذيلة

شهوية ودنس معنوي، فإنّ الإنسان إذا ترك الدنيا الدنيّة ليخطو في عالم الروح خطوات، ويتنفّس من معانيه الخيّرة ومضات، ويتنعّم بملاذه النزيهة الشيقة دقائق قليلة، ويتركّز في نفسه حب الخير والإحسان، وتندمج روحه بعالم المعروف والإخاء، ترك هذا العالم المادّي السافل ليعيش في العالم الروحي السامي.. عالم صعيده الحب والمودّة، وسماؤه الصدق والإخلاص، وشمسه المعرفة والإيمان، وسبيله الواقع والحقيقة، وعلى حافتيها تنمو الفضيلة الإنسانية لتثمر الأخلاق الطيّبة، والسنن الجميلة، عالم يبتدئ بعبادة الله، وينتهي عند معرفته الصادقة وتفويض أمور الكون إلى قدرته وسلطانه.

إلى عرفات

فأحرمنا وعزمنا أن نسير نحو عرفات؛ وعرفات وادٍ عَرَف النبي إبراهيم عليه السلام فيه صدق رؤياه، كما تعارف فيه آدم عليه السلام مع حوّاء، والحاج يعترفون فيه بالذنوب فتغفر لهم. يسير إليه الحجاج الملبّون في يوم التروية غالبًا ليتبوؤوا مقاعدهم المُعدّة لهم، وينتظروا فيها وقت الوقوف، ويذهب قبلهم المطوفون لنصب الخيام لحجاجهم، وإجراء التدابير اللازمة للوقوف.

فانحدرنا نحو عرفات في ازدحام من الجماهير الملبّية، واندفاع من سياراتهم الكثيرة، حتى أطللنا على واديها، فإذا بنا نرى رؤوس الخيم البيض كلما استطاع البصر أن يرى، وكلها تستقبل ضيوف الربّ الودود، أما في الشوارع فلم تكد ترى إلاّ رؤوساً متراصة وجماهير متدفقة.

وأما داخل الخيام فصوت الدعاء والاستغفار والتضرّع والتوبة يدوي في الفضاء الكبير مندلعًا من فم مئات الألوف، وقد انحسر القناع عن الرؤوس، وارتفعت الرياش عن الأجسام، وتباعدت الأخفاف عن

الأقدام، وزادهم ثوبا الإحرام تواضعًا، ووقوفهم في ذلك الوادي المقفر تحت أشعة الشمس الملتهبة، وتحت وطأة حرّها اللافح، نسيانًا لدنيا الزخرف الأجوف والجمال المزيف، وتذكّرًا لعالم العقبى، ويوم الطامّة الكبرى. فاليوم يجتمعون على مائدة التوبة والمغفرة، وغداً يُحشرون للحساب والجزاء، فيستغفرون من الذنوب، ولا يعود إليها عرض حياته بعد هذا.. إلّا الشقي من أشقيائهم.

مندوبات عرفات

وكان المندوب في ذلك شيئًا كثيرًا، من دعاء وصلاة، واستغفار وتسبيحات، لا سيّما للواقف بعرفات، الذي يجتمع فيه أمران: شرف المكان، وعظمة اليوم.

وأعظم من ذلك كلّه دعاء الإمام الحسين بن علي ابن أبي طالب عليه السلام الهادر من قلب الإيمان والمنطلق عن فم العبوديّة، بنغمة صوت المطيع المستجير، فكل كلمة منه ومضة من نور الإيمان، تملأ القلب، وتضيء دجاه، أو نبضة توحيد تحيي النفوس وتنفخ فيها روح المعرفة واليقين..

فانظر إلى قِسْم مِنْ حمده كيف يشرح صدرك، ويهديه ويخرجه من التيه البعيد: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَيْسَ لِقَضَائِهِ دَافِعٌ، وَلا لِعَطَائِهِ مَانِعٌ، وَلا كَصُنْعِهِ صُنْعُ صَانِعٍ، وَهُوَ الجَوَادُ الوَاسِعُ، فَطَرَ أَجْنَاسَ الْبَدَائِعِ، وَأَتْقَنَ بِحِكْمَتِهِ الصَّنَائِعَ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ الطَّلَائِعُ، وَلا تَضِيعُ عِنْدَهُ الْوَدَائِعُ، أَتَى بِالْكِتَابِ الجَامِعِ، وَبِشَرْعِ الإِسْلامِ النُّورِ السَّاطِعِ، وَهُوَ**

لِلْخَلِيفَةِ صَانِعٌ، وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ عَلَى الْفَجَائِعِ، جَازِي كُلِّ صَانِعٍ، وَرَائِشُ كُلِّ قَانِعٍ، وَرَاحِمُ كُلِّ ضَارِعٍ، وَمُنْزِلُ الْمَنافِعِ وَالْكِتَابِ الْجَامِعِ بِالنُّورِ السَّاطِعِ، وَهُوَ لِلدَّعَوَاتِ سَامِعٌ، وَلِلدَّرَجَاتِ رَافِعٌ، وَلِلْكُرُبَاتِ دَافِعٌ، وَلِلْجَبَابِرَةِ قَامِعٌ، وَرَاحِمُ عَبْرَةِ كُلِّ ضَارِعٍ، وَدَافِعُ ضَرْعَةِ كُلِّ ضَارِعٍ. فَلا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا شَيْءَ يَعْدِلُهُ، ﴿وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾..»[1].

وإلى آخر دعائه العظيم، الذي يعرض فيه نعم الله وآلاءه فيحمده ويُثني عليه، ويسأله الغفران، بتسلسل أدبي وثيق، ونبضات بلاغية لطيفة.

تذكّر الإخوان

كما كان المندوب أن يدعو الإنسان لإخوانه المؤمنين، لا سيّما المتخلّفين في بلادهم قبل أن يدعو لنفسه، وأقل عدد منهم أربعون أخًا مسلمًا، ويستحب أن يذكرهم بالاسم فيدعو لهم بغفران ذنوبهم، وقضاء حوائجهم المشروعة.

ودعاء الإنسان لأخيه في غيابه، يجتث كل غِلٍّ وحقد وحسد على الإخوان المؤمنين، بالإضافة إلى المحبّة التي يبعثها في قلب الأخر المدعو له، فيعيش في دنيا المحبّة والصفاء والوئام.

(١) مفاتيح الجنان، دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم العرفة.

أضف إلى ذلك ما فيه من المثوبة الأخروية، فقد روى الكليني عن علي بن إبراهيم عن أبيه، قال: «رَأَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ جُنْدَبٍ فِي الْمَوْقِفِ[1] فَلَمْ أَرَ مَوْقِفاً كَانَ أَحْسَنَ مِنْ مَوْقِفِهِ، مَا زَالَ مَادّاً يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى خَدَّيْهِ حَتَّى تَبْلُغَ الأَرْضَ، فَلَمَّا صَدَرَ النَّاسُ قُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ مَا رَأَيْتُ مَوْقِفاً قَطُّ أَحْسَنَ مِنْ مَوْقِفِكَ!.

قَالَ: وَاللهِ مَا دَعَوْتُ إِلَّا لِإِخْوَانِي وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا الْحَسَنِ مُوسَى عليه السلام أَخْبَرَنِي: أَنَّ مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ نُودِيَ مِنَ الْعَرْشِ وَلَكَ مِائَةُ أَلْفِ ضِعْفٍ.

فَكَرِهْتُ أَنْ أَدَعَ مِائَةَ أَلْفٍ مَضْمُونَةٍ لِوَاحِدَةٍ لَا أَدْرِي تُسْتَجَابُ أَمْ لَا»[2].

وروي عن عبد الله بن جندب قال:

«كُنْتُ فِي الْمَوْقِفِ فَلَمَّا أَفَضْتُ[3] لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ شُعَيْبٍ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، وَكَانَ مُصَاباً بِإِحْدَى عَيْنَيْهِ، وَإِذَا عَيْنُهُ الصَّحِيحَةُ حَمْرَاءُ كَأَنَّهَا عَلَقَةُ دَمٍ، فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ أُصِبْتَ بِإِحْدَى عَيْنَيْكَ، وَأَنَا وَاللهِ مُشْفِقٌ عَلَى الأُخْرَى، فَلَوْ قَصَرْتَ مِنَ الْبُكَاءِ قَلِيلاً.

فَقَالَ: وَاللهِ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ مَا دَعَوْتُ لِنَفْسِيَ الْيَوْمَ بِدَعْوَةٍ.

(١) هو عرفات في عرف المتقدّمين، فإذا قالوا الموقفان أرادوا عرفات ومشعر.
(٢) الأصول من الكافي: ج٢، ص٥٠٨.
(٣) أي كنت في عرفات فلما ذهبت إلى المشعر.

فَقُلْتُ: فَلِمَنْ دَعَوْتَ؟.

قَالَ: دَعَوْتُ لِإِخْوَانِي، لِأَنِّي سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِاللهِ عليه السلام يَقُولُ: مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ وَكَّلَ اللهُ بِهِ مَلَكًا يَقُولُ: وَلَكَ مِثْلَاهُ.

فَأَرَدْتُ أَنْ أَكُونَ إِنَّمَا أَدْعُو لِإِخْوَانِي وَيَكُونَ الْمَلَكُ يَدْعُو لِي لِأَنِّي فِي شَكٍّ مِنْ دُعَائِي لِنَفْسِي وَلَسْتُ فِي شَكٍّ مِنْ دُعَاءِ الْمَلَكِ لِي»[1].

بلى، وقفنا في وادي عرفات من زوال الشمس يوم التاسع من ذي الحجة الحرام إلى غروب الشمس، ذلك الوادي الذي استقبل (١٠٦٦٠٠٠) مليون وستة وستّين ألف مسلم[2]، في خمائله وبين جنادله الجرداء، الذين وفدوا من أقطار الأرض، وأطرافها الواسعة، فيهم الأبيض والأسمر، والأسود والأحمر، والوزير والأمير، والغني والفقير، والوضيع والشريف، والقوي ذو النفوذ الواسع والضعيف، وفيهم من غير ذلك طبقات وطبقات.. كلهم قد أتوا ضيوفًا على البارئ الكريم، يقفون فيه معترفين بما اقترفوا عرض حياتهم من الذنوب والخطايا، مستغفرين تائبين، ويجلسون معًا على مائدة عفو الله، ويحوزون منها حظّهم الأوفر.

(١) الفروع من الكافي: ج٤، ص٤٦٥.
(٢) كما كتبت الجرائد اليومية السعودية الصادرة آنذاك.



إلى المزدلفة

ثم أفضنا من حيث أفاض الناس إلى المشعر الحرام، لنبيت بـه ليلة العاشر مـن ذي الحجة، ثـم نفيض منه بعد طلوع الشمس من يوم العيد إلى منى.

فلما ركبنا السيارة لنذهب إلى المزدلفة (المشعر) أطللنا لمرة ثانية على وادي عرفات الواسـع، فإذا هو وادٍ مقفر، أو كاد، بينما كان قبل سـاعات آهـلًا معمورًا، فالخيم منصوبة على نسق بديع، والشـوارع مليئـة بالجماهير والسـيارات، لكنه الآن أمسـى وخيمه قد قُوِّضت فلم تبق منها غير آثار يسيرة، وسكانها قد انحدروا يفيضون نحو المشعر الحرام.

وكنّـا جالسـين فـوق السـيارة مشرفين عـلى وادي عرفـات كلـه، فكانـت السـيارات تزدحـم عـرض الوادي وطولـه، بإضافـة الجـم الغفير مـن الذيـن كانوا يشـقّون طريقهم على جانبي السيارات مشيًا على الأقدام.

فلم يمضِ إلَّا وقت قليل حتى رأينا الظلام قد خَيَّم على الكون، وقد غربت الشمس، والليل قد أسدل سدوله وأطبق عـلى العـالم، فأخذت أشـعة أنـوار السـيارات تمـلأ الصحراء الواسعة كأنها سيل من النور ينهمر على الهضاب والبطاح.

صحراء آهلة

حتى بلغنا المشعر، فإذا هو وادٍ يحدّه: المأزمان ووادي محسر والحياض، وهو داخل في حدود الحرم، بينما عرفات خارجة عنها، ولذلك لا يجوز التقاط حصى الجمرات من عرفات، ويجوز -بل يندب- من المشعر الحرام.

وقد مُلِئ هذا الوادي بالسيارات التي وقفت وبجنبها بات حجاجها لكيلا يضلّوا الطريق، فلا يهتدون إلى سياراتهم، فمن شأن هذا الوادي أن الإنسان إذا ابتعد عن محلّه خطوات فرجوعه معجزة من المعجزات، إذ إن الظلام مطبق والسيارات مزدحمة بغير انتظام، والناس كلّهم مُحْرِمون سواسية كأسنان المشط، لا يُهتدى إليهم إلّا بالصوت والنداء، كما قد اتفق لي فإني تهت الطريق بحيث ما كنت أشعر حتى الجهة التي جئت منها، أمن الشرق أم من الغرب أو من الشمال أو الجنوب، فكنت أضرب يمينًا وشمالًا في الوادي الواسع وأركض في الطول حينًا وفي العرض آخر، وليس أحد يعرف موضعنا حتى أسأله كما لم يكن أحد يشاطرني التفقّد مخافة أن يضل كما ضللت.

ومن المضحك أني مررت وأنا ضائع بحلقة من الحجاج الإيرانيين، قد جلسوا آخذين أطراف الحديث يتلقفونه من هنا إلى هناك، فذهبت إليهم علّهم يعينوني بشيء من معلوماتهم، فلما سلّمت عليهم وكدت أن أستعين بهم، فإذا بهم قد ضلّوا الطريق مثلي، ولم يكونوا

يعلموا ماذا يصنعون، ولم يكونوا فرقة معيّنة، وإنما هم طوائف شتى كل منهم ضلّ عن أصدقائه، فجمعتهم الصدفة فأخذوا يتحادثون لعلّ الله يُحدث بعد هذا أمرًا.

أما أنا فغادرتهم إلى جهة من الجهات ولكنني كنت أنظر إلى الجهة الأخرى وهي أنه صادفني الحظ أن مررت بأصدقائي، فنظرت إليهم ولم أهتدِ إليهم مع ذلك حتى غادرتهم، ولم أبتعد عنهم كثيرًا حتى نادى بعضهم بعضاً فعرفت بذلك أنهم هم بأعينهم، فحمدت الله على ذلك كثيرًا.

وصلّينا صلاة المغرب والعشاء فيه -بعدما أخّرناهما إليه عملاً بما هو المندوب- وجمعنا بينهما بأذان واحد، لما كان المستحب ذلك، أي الجمع بينهما وتأخير النوافل بعدها ليشتغل الإنسان بالعبادة ويسهر ليلته بالطاعة، فمن أحياها لم يمت قلبه، كما في الحديث.

وبتنا تلك الليلة التاريخية على الرمال، مع أن البرد كان شديدًا على خلاف المترقّب، قد زاد عليه ثوبا الإحرام اللذان لا يستران البدن تمامًا، قد زادا البرد نفوذًا في الأعماق، حتى قضيناها شاعرين بأنه لم يأتِ بنا إلى هذا الوادي القفر الذي لا أهل به ولا تجارة غير الله العزيز، عارفين بأن من أتى بنا إلى هذه الصحراء الجرداء هو الذي يجمعنا ليوم لا ريب فيه، فإذن يجب علينا ألّا نعمل إلّا صالحاً ولا نقول إلّا حقًا.



إلى منى

ثم ولمّا أصبح الصباح وأخذ جيش النور يتغلّب على الظلام المطبق، وأخذ الحجاج يتهيؤون للرحيل، وقد صلّينا صلاة الفجر وجلسنا نجمع الحصى للجمار الثلاث حيث يستحب التقاطها من المشعر ليرمي الحاج جمرة العقبة فور وصوله إلى وادي منى، لأنه يعتبر تحيّة للوادي. ولمّا أشرقت الشمس طالعة من الشرق في سلطانها وهيبتها تغمر الكون بالنور الجميل، فأفاضت على الصحراء المنبسطة.. وهضباتها المرتفعة، حلّة ذهبيّة قشيبة، أفضنا إلى منى في ذلك الحين.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[1].

ثم يأخذ الحكيم عزّ وجلّ في بيان طريقة ذكر الله بعدما انقضى الواجب وأفاضوا إلى وادي منى، فيقول: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٩/ ٢٠٠.

حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[1].

العرب وقريش

وقد كانت العرب في الجاهلية الجهلاء يوغلون في التفاخر الأرعن، كلٌّ بقبيلته وبين قومه، وذلك عند انقضاء مناسك عرفات ومنى، كما كانت قريش تفيض من المشعر ولا تأتي إلى عرفات لتفيض منها فتأخذها العزّة بالإثم وتقول: نحن سادات العرب، وسدنة الكعبة، فكيف نفيض من حيث يفيض الناس الآخرون؟!.

فجاء الإسلام وضرب بالعصبيات القبلية عرض الجدار كما جعل الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل فيهم ولا تفاضل بينهم إلّا بالتقوى. فأنزل قوله الصارم الحق.. فكان صاعقة على قريش ومن تفاخر معها بالأنساب قائلاً: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾[2].

ولما أن وصلنا على مقربة من منى وقفت السيارة للازدحام الكثير من السيارات المتدفقة نحو منى، فكانت

(١) سورة البقرة، آية: ٢٠٠/ ٢٠٢.

(٢) سورة البقرة، ١٩٨/ ١٩٩.

أمامنا السيارات واقفة مد البصر، كما كانت خلفنا، كذلك عن اليمين واليسار، فنزلنا عن السيارة علمًا منّا بأننا لن نصل إلّا بعد الزوال ونحن لم نزل في الصبح.. فنزلنا عنها سائرين نحو خيمنا، فلم نقطع إلّا قليلاً من الطريق حتى وصلنا إلى خيمنا المنصوبة لنا.

وكان الواجب علينا في ذلك اليوم -أي يوم العيد المبارك- ثلاثة واجبات:

١- رمي جمرة العقبة بسبع من الحصى ملتقطة من الحرم -وأفضل أطرافه المشعر- بكرًا (أي غير مرميٍّ بها).

٢- ذبح هدي الحج؛ يجب على المتمتّع -وهو الحاج الوافد من الديار البعيدة- وعلى القارن -وهو الذي يأتي بهديه من منزله- فحسب.

٣- حلق الرأس للصروة (أي من حج لأوّل مرّة)، ويجوز لغيره ذلك والتقصير مخيّرًا بينهما.

وبقينا في ذلك اليوم المبارك، بذلك الوادي المبارك، ذاكرين البارئ الذي وفّقنا لتلبية دعوته، فأرانا مناسكنا بفضله ورحمته.

فأوّل ما عملنا هو رمي جمرة العقبة، رمز الشر والمنكر والإجرام، إشعارًا بأنّا لن نرضخ لإيحاءات الشيطان الرجيم.

رمي الجمرات

وقد يقول بعض الجهلاء، ثم ماذا؟. رمينا هذه البناية المرفوعة فما النتيجة؟. بيد أن القائل لم يعرف، أنّ الإنسان قد يُهين شيئًا من الجمادات لا لشيء إلا لأنّها رموز الأفراد، أرأيت كيف تُرمى التماثيل في بعض الحالات، وتُهان؟.

لماذا تُرمى؟ ولأية جهة تُهان؟!.

ليس لشيء، غير أنها رموز لرجال مغضوب عليهم.

كذلك نحن نرمي الجمرة لأنها رمز الشيطان، والشيطان هيكل الإجرام، والآمر بالفحشاء والمنكر، نرميه هو وفعاله، فيصبح في قلوبنا الكره له ولما أمر به أو ينسب إليه.

وبقينا في منى ليلة الحادي عشر، والثاني عشر، عملًا بالمفروض، كما كان يجب المبيت ليلة الثالث عشر لمن لم يتقِ الصيد والنساء (أي اصطاد أو استمتع بالنساء) في إحرامه، رمينا خلالها الجمرات الثلاث اقتداءً بأبينا إبراهيم عليه السلام، حيث نزل منى فظهر له الشيطان عند الجمرة الأولى (وهي التي يجب رميها أوّلًا وتستقر من جانب المزدلفة) فرماه بسبع حصيات.

فغاب عنه، ووقف إبراهيم عليه السلام يتحدّث مع

أخيه جبرائيل عليه السلام وظهر الشيطان عند الجمرة الثانية (وهي الجمرة الوسطى) فأعاد إبراهيم رميه، ورماه بسبع حصيات أخرى. فغاب عنه وظهر بعد مدة لدى الجمرة الثالثة (المسمّاة بالعقبة وهي تلي مكّة المكرّمة) فرماه إبراهيم عليه السلام ثالثًا، وذهب في طريقه.

فأصبح الواجب رمي الجمرات هذه في أيام التشريق لكل من كان بمنى.

أما الجمرات، فهي بنايات يرتفع كل واحدة منها عن الأرض بمترين تقريبًا، دائرية الشكل كإسطوانة ضخمة، بيد أن جمرة العقبة ليست إلاّ ذات جهة واحدة، يرميها الحجاج من تلك الجهة فحسب، بينما غيرها دائري الشكل يُحيطها الحجاج بالرمي.

فبتنا -تلك الليالي- بمنى نلتقي بمئات من الحجاج الوافدين من مختلف البلاد كما نلتقي بأمثالهم في مكّة المكرّمة.

مسجد الخيف

وزرنا خلالها مسجد الخيف[1] وصلّينا فيه ركعات لربنا الجليل، عملاً بمستحبات هذا المسجد، الذي صلّى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، كما صلّى به ألف نبي عليهم السلام[2].

---

(١) سُمي بالخيف لأنه في ارتفاع من الأرض وكل مرتفع خيف في اللغة العربية.

(٢) المقنع للشيخ الصدوق، ص٢٨٥.



مناسك مكّة المكرّمة

ثم وبعد ذلك كلّه نفرنا إلى مكّة المكرّمة، لأداء بقية المناسك، وهي:

١- طواف الزيارة (الحج) سبعة أشواط كاملاً حول الكعبة المشرفة.

٢- ركعتا الطواف خلف مقام إبراهيم عليه السلام.

٣- السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط.

٤- طواف النساء سبعة أشواط حول بيت الله الحرام.

٥- ركعتا طواف النساء خلف مقام إبراهيم عليه السلام.

وبذلك تم الحج، وقُضيت المناسك. فغادرنا مكّة المكرّمة، بعد طواف الوداع، وبعدما بقينا فيها أيامًا قليلة، غادرناها حامدين الربّ الودود الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، فانتهت مناسكنا كما انتهت معها أشواط مباركة من الحياة.



المحتويات